٣٧



بقلم

أبو الحسن علي الحسني الندوي

رَبَّانِيَّةٌ لَا رَهْبَانِيَّةٌ

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

كتب قيمة
(٣٧)

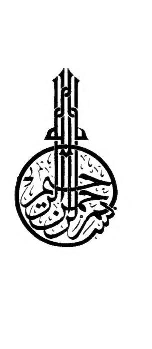


بقلم

أبو الحسن علي الحسني الندوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم



تقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

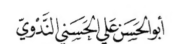
أما بعد؛ فقد ظهرت الطبعة الأولى لكتاب (ربانية لا رهبانية) في سنة ١٣٨٦هـ، وكانت طبعة مستعجلة لم تنل حظّها من التنقيح ومراجعة المؤلف، ووقعت فيها أخطاء كتابية ومطبعية تأسّف المؤلف عند الاطّلاع عليها، ونفدت هذه الطبعة في مدة وبسرعة لم يكن المؤلف يتوقعهما؛ لانصراف الجمّ الغفير من قرّاء الكتاب العربي عن هذا الموضوع الذي أحاطت به هالات كثيرة كثيفة من سوء الاستعمال وسوء التفاهم، وتلقّى المؤلف رسائل من كبار

المثقفين وقادة الفكر والكتّاب الإسلاميين، يُبْدون فيها أعجابهم بهذا الكتاب واستحسانهم للفكرة التي يعرضها هذا الكتاب ويشرحها، ولأسلوب المؤلِّف فيه، وذلك كلّه تيسير من الله تعالى وتوفيقٍ منه.

وتكرّر الطلب من الناشر لمراجعة الكتاب وإعداده للطبعة الثانية، ولم يتمكن المؤلف من تحقيق هذا الغرض ـ على شدة حرصه عليه وتحيّن الفرصة له ـ إلا في هذه الأيام، وقد استطاع بحول الله تعالى أن يُلحق بالكتاب بعض فصول وزيادات تزيد في قيمة الكتاب وجماله، أهمها مقال جديد بعنوان: (من تناقضات العقلاء) وملتقطات من رسائل الإمام شرف الدين يحيى المنيري في موضوع كرامة الإنسان وقيمته وقصة وفاته، وهذا عدا زيادات يسيرة مبعثرة في ثنايا الكتاب ومطاويه.

وبهذه الزيادات ومع تصحيح وتنقيح جديدين نقدّم الكتاب إلى القرّاء من جديد، والحمد لله أولاً وآخراً.

٢٣/٦/١٣٨٨هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠].



كلمة بين يَدي الكتاب

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى.

أما بعد: رأيت أخي القارئ الكريم على الصفحة السابقة آية من القرآن الكريم، وهي قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

الآية التي تقتضي من الأجيال اللاحقة من المسلمين أن تكون منشرحةَ الصدر، مقدِّرةً واعيةً للأجيال السابقة ولمن سبقها وتقدَّمها في الإخلاص لله تعالى وطاعته وخشيته وخدمة هذا الدين، والدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله والعناية بأحوال المسلمين، وسدّ ثغور الإسلام والمسلمين، لا تحمل لها غِلاًّ ولا حقداً، ولا يضيق صَدْرُها عن الاعتراف لها بالجميل، وعن الدعاء والثناء والْتماس العُذْر لها،

وغضِّ البصر عن زَلاَّتها التي لا يخلو عنها بشر ولا يبرأ عنها مجتهد، فكل من يجتهد يخطئ ويصيب، وكل من يجري يكبو ويَعْثُر، وكلٌّ يؤخذ من قوله ويُرد، إلا النبي المعصوم ﷺ.

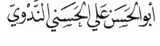
وتقتضي هذه الآية أن نكون مُتورِّعين في الحكم على سَلَف الأمة وسابقيها في الإيمان والإحسان، بل تقتضي الآداب القرآنية والتعاليم النبوية أن نكون متورِّعين في الحكم على كل مسلم، لانتهوَّر ولانتسرَّع، ولا نتحمس ولا نجزم، حتى نكون على بيِّنة من الأمر، وحتى نستوثق ونتأكد، فقد قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦].

وبعد: فهذه مقالات كُتبت في أوقات مختلفة وفي مناسبات مختلفة، وبعضها حديث لم يطبع، تجمع بينها وحدة معنوية، وهي شرح فكرة على أساس العلم والتجربة، وإيضاح ضرورة أو ثغرة في حياتنا وأخلاقنا، لابدّ أن تسدّ، ودفاع عن جماعة اشتدت حولها الخصومة في هذا العصر، ومعظم من يخوض فيها ويتحمَّس لا يعرفها معرفة شخصية

عميقة، ولا يُتْعب نفسه في دراستها.

وقد أتاح الله للمؤلف ـ لحكمة يعلمها ـ فرصة الاتصال بها اتصالاً لا يتأتَّى لكل من عاش في مثل جوِّه العلمي وبيئته العصرية، فسجل مشاهداته وانطباعاته وحصيلة دراسته وحياته في هذه المقالات، مجموعة في هذا الكتاب، ننشرها اليوم قياماً بالواجب واعترافاً بالجميل، ودفاعاً عن جماعة تدين لها بعض الأجيال وبعض الأقطار بالدخول في الإسلام، أو بالبقاء عليه، راجياً من الله ثواب هذا العمل، وعسى أن يحرِّك ساكن القلوب، وأن يثير كامن الإيمان، وأن يحمل بعض العقلاء والمنصفين على التفكير من جديد، وعلى طلب المزيد، وبالله التوفيق وله الحمد في الأولى والآخرة.

٢٩/٣/١٣٨٦هـ
١٩/٧/١٩٦٦م





فراغ يجب أن يُملأ

جناية المصطلحات على الحقائق والغايات :

إنَّ للمصطلحات والأسماء الشائعة بين الناس للأشياء جناية على الحقائق، ولهذه الجناية قصة طويلة في كل فن ولغة، وفي كل أدب ودين، فإنها تولِّد كائناً آخر تنشأ عنه الشُّبهات، وتشتد حوله الخصومات، وتتكون فيه المذاهب، وتستخدم لها الحجج والدلائل، ويَحْمَى فيها وطيس الكلام والخصام.

فلو عَدَلْنا عن هذه المصطلحات المحدَثة، وعن هذه الأسماء العرفية ورجعنا إلى الماضي وإلى الكلمات التي كان يعبِّر بها الناس عن هذه الحقائق في سهولة وبساطة، وإلى ما كان ينطق به رجال العهد الأول والسَّلَف الأقدمون، انحلت العُقْدة، وهان الخَطْب واصطلح الناس.

ومن هذه المصطلحات والأسماء العرفية التي شاعت

بين النـاس (التصوف)، ومن هنـا ثارت أسـئلة وبحوث، وتسـاءل الناس ما مدلـول الكلمـة وما مأخذهـا؟ هل هو من الصوف أو من الصفـاء أو من الصفـو؟ أو هي مـأخوذة من الكلمة اليونانية (صوفيا) معناها (الحكمة)[1]؟.

ومتى حدثت هذه الكلمة؟ولم نعرف لها أثراً في الكتاب والسنَّة، وما جاءت في كلام الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسـان، وما عُرفت في خيـر القرون، وكل ما كان هذا شـأنه، فإنه من البدع المحدَثـة، وقد حميت المعركـة بيـن أصدقائه وخصومه، والموافقين والمعارضين، حتى تكونت بذلك مكتبة كبيرة يصعب استعراضها.

التزكية والإحسان ومكانتهما من الكتاب والسنَّة:

أما إذا عَدَلْنا عن هذا المصطلح الذي نشـأ وشاع في القرن الثاني[2]، ورجعنا إلى الكتاب والسنة وعصر الصحابة والتابعين، وتأملنا في القرآن والحديث، وجدنا القرآن ينوِّه بشعبةٍ من شُعب الدين، ومهمة من مهمات النبوة يعبِّر عنها

---

(١) كلُّها أقوال قيلت في معنى التصوّف واشتقاقه، راجع دائرة المعارف، للبستاني؛ وتاريخ آداب اللغة العربية، لزيدان

(٢) كشف الظنون: ١/ ٢٨٠، نقلاً عن الإمام القُشَيري.

بلفظ (التزكية) ويذكرها كركن من الأركان الأربعة التي بعث الرسول الأعظم ﷺ لتحقيقها وتكميلها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وهي تزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل، وتخليتها من الرذائل، التزكية التي نرى أمثلتها الرائعة في حياة الصحابة رضوان الله عليهم وإخلاصهم وأخلاقهم، والتي كانت نتيجتها هذا المجتمع الصالح الفاضل المثالي، الذي ليس له نظير في التاريخ، وهذه الحكومة العادلة الراشدة التي لا مثيل لها في العالم.

ووجدنا لسان النبوَّة يلهج بدرجةٍ هي فوق درجة الإسلام والإيمان، ويعبِّر عنها بلفظ (الإحسان) ومعناها: كيفيةٌ من اليقين والاستحضار، يجب أن يعمل لها العاملون، ويتنافس فيها المتنافسون، فيسأل الرسول ﷺ ما الإحسان؟ فيقول: «أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

---

(١) حديث متفق عليه.

ووجدنا الشريعة، وما أثر عن الرسول ﷺ من الأقوال والأحوال، ودُوِّن في الكتب، ينقسم بين قسمين: أفعال وهيئات، وأمور محسوسة كقيام وقعود، وركوع وسجود، وتلاوة وتسبيح، وأدعية وأذكار، وأحكام ومناسك، قد تكفَّل بها الحديث رواية وتدويناً، والفقه استخراجاً واستنباطاً، وقام بها المحدِّثون والفقهاء ـ جزاهم الله عن الأمة ـ فحفظوا للأمة دينها، وسهَّلوا لها العمل به.

وقسم آخر هو كيفيات باطنية، كانت تصاحب هذه الأفعال والهيئات عند الأداء، وتلازم الرسول ﷺ قياماً وقعوداً، وركوعاً وسجوداً، وداعياً وذاكراً، وآمراً وناهياً، وفي خلوة البيت وساحة الجهاد، وهو الإخلاص والاحتساب والصبر والتوكّل، والزهد وغنى القلب، والإيثار والسخاء، والأدب والحياء، والخشوع في الصلاة والتضرع، والابتهال في الدعاء، والزهد في زخارف الحياة وإيثار الآخرة على العاجلة، والشوق إلى لقاء الله، إلى غير ذلك من كيفيات باطنية، وأخلاق إيمانية، هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد، والباطن من الظاهر.

وتندرج تحت هذه العناوين تفاصيل وجزئيات،

وآداب وأحكام، تجعل منها علماً مستقلاً، وفقهاً منفـرداً، فإن سُمِّي العلم الذي تكفَّل بشرح الأول وإيضاحه وتفصيله والدلالة على طرق تحصيله (فقه الظاهـر)؛ سُـمِّي هذا العلم الذي يتكفل بشرح هذه الكيفيات، ويدل على طرق الوصول إليها (فقه الباطن).

فكان الأجدر بنا أن نسمِّي العلم الذي يتكفل بتزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل الشرعية وتخليتها عن الـرذائـل النفسيـة والخلقيـة، ويـدعـو إلـى كمـال الإيمـان والحصول على درجة الإحسان، والتخلُّق بالأخلاق النبوية، واتِّباع الرسـول ﷺ في صفاته الباطنيـة، وكيفياتـه الإيمانية، كان الأجدر بنا وبالمسلمين أن يسمُّوه (التزكية) أو (الإحسان) أو (فقه الباطن)، ولو فعلوا ذلك لانحسـم الخلاف وزال الشقاق، وتصالح الفريقان اللذان فَرَّق بينهما المصطلح، وباعد بينهما الاستعمال الشائع.

فالتزكية والإحسان وفقه الباطن حقائق شرعية علمية، ومفاهيم دينية ثابتة من الكتاب والسنة، يقر بها المسلمون جميعاً، ولو ترك (المتصوِّفون) الإلحاح على منهاج عملي خاص للوصـول إلى هذه الغايـة التي نعبِّـر عنهـا بالتزكيـة،

أو الإحسان، أو فقه الباطن - فالمناهج تتغيّر وتتطوّر بحسب الزمان والمكان، وطبائع الأجيال والظروف المحيطة بها - وألحّوا على (الغاية) دون (الوسائل) لم يختلف في هذه القضية اثنان، ولم ينتطح فيها عنزان، وخضع الجميع وأقرّوا بوجود شعبة من الدين وركن من أركان الإسلام يحسن أن نعبّر عنه بالتزكية أو الإحسان أو فقه الباطن، وأقرّوا بأنه روح الشريعة، ولبُّ لباب الدين وحاجة الحياة، فلا كمال للدين ولا صلاح للحياة الاجتماعية، ولا لذة - بالمعنى الحقيقي - في الحياة الفردية إلا بتحقيق هذه الشعبة في الحياة.

ثم عُني أكثرهم بالحِسْبة والعناية بواقع المجتمع الإسلامي إيمانياً وخلقياً، انفرادياً واجتماعياً، والدعوة إلى الإسلام والتوحيد الخالص، في حماس وإخلاص، وحكمة ولباقة، حتى أسلم على يد بعضهم ملايين من غير المسلمين، ومئات آلاف في بعض البلاد، وتاب على أيدي بعضهم ملايين ومئات ألوف من الشرك والبدع، وحياة غير شرعية، وكذلك الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، والحنين إلى الشهادة والشوق إلى إعلاء كلمة الله وتطبيق شريعته على المجتمع الإسلامي والبلاد الداخلة في حظيرة الإسلام

بحماس، قلّما يوجد نظيره كما سيأتي في الصفحات الآتية، عند الحديث عن بعض أعلام هذه الطائفة، والتنويه بمآثرهم.

لنقرِّر الحقيقة، ونتحرَّر من القيود، وننبذ العصبية:

ومن هنا كانت جناية هذا المصطلح، والعرف الشائع (التصوف) على هذه الحقيقة الدينية الناصعة عظيمة، فقد حجبتها عن أنظار كثيرة، وصدَّت فريقاً كبيراً من الناس عن سبيلها، والحرص على تحصيلها، ولكن كان ذلك لأسباب تاريخية يطول ذكرها، والأمور تجري كثيراً على غير الأهواء والمصالح، وليس لنا الآن إلا أن نقرر الحقيقة، ونتحرَّر من القيود والمصطلحات، ومن النزعات والتعصبات، ولا نفر من حقيقة دينية يقرّرها الشرع ويدعو إليها الكتاب والسنّة، وتشتد إليها حاجة المجتمع والفرد، لأجل مصطلح مُحدَث، أو اسم طارئ دخيل.

جناية الدجالين والمحترفين، وجناية المقلِّدين والمخلِّطين:

ثم جنى على هذه الحقيقة الدينية شيء آخر، وهو أنه

دخل فيها دجالون ومحترفون، وباطنيون وملحدون، اتخذوها وسيلة لتحريف الدين، وإضلال المسلمين، وإفساد المجتمع، ونشر الإباحية، وتزعموا هذا الفن، وحملوا لواءه، فكان ذلك ضِغْثاً على إبَّالة.

وزهد فيه ونفر منه أهل الغَيْرة الدينية، والمحافظون على الشريعة الإسلامية، وطائفة أخرى من غير المحقِّقين لم يعرفوا روح هذه الشعبة وغايتها، ولم يميزوا بين الغاية والوسائل فخلطوا بينها، وألَحُّوا على الوسائل أحياناً، وضيعوا الغاية، أو أدخلوا ما ليس من هذا الفن في صميم هذا الفن وصلبه، وعدُّوه من الكمالات، ومن الغايات المطلوبة، وعقَّدوا المسألة وطوَّلوها، وجعلوا الشيء الذي يكلف به كل مسلم والذي هو لبُّ الدين وحاجة الحياة، لغزاً وفلسفة ورهبانية لا يجرؤ عليها ولا يطمع فيها إلا من نفض يده من أسباب الحياة ورفض الدنيا وما إليها، ولا شك أن أولئك قليل من قليل في كل عصر وجيل، وليست هذه دعوة الدين ولا أسوة الرسول ﷺ ولا حكمة الخلق.

الراسخون في العلم والإيمان، وبعض مواقفهم ومآثرهم:

ولكن الله قيَّض للمسلمين في كل عصر وجيل، من

يَنْفون عن هذا الدين «تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» ويدعون إلى التزكية الخالصة من شوائب البِدْعة وإلى (الإحسان) و(فقه الباطن) من غير تحريف وانتحال وتأويل، ويجدِّدون صلة القلوب بالله، والأجسام بالأرواح، والمجتمع بالأخلاق، والعلماء بالربانيَّة، ويوجِدون في الجمهور قوة مقاومة الشهوات وفتنة المال والولد، وزينة الحياة الدنيا، وفي الخواص قوة مقاومة صلات الملوك وسياطهم، ووَعْدهم ووعيدهم، والجرأة على الجهر بكلمة حق عند سلطان جائر، والاحتساب على الملوك والأمراء، والاستهانة بالمظاهر والزخارف، والقناعة باليسير، فيستطيع أحدُهم أن يقول ـ وقد طُلب منه أن يقبل يد الملك ليرضَى عنه ـ: «يا مسكين! والله ما أرضاه أن يقبِّل يدي فَضْلاً عن أن أقبل يده، يا قوم أنتم في وادٍ أنا في وادٍ»[1].

ويقول بعضهم، وقد عرض عليه مَلِكُ بلاده أن يقبل شيئاً مما آتاه الله من الخير الكثير: «إن الله يصف هذه

(١) قالها الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام (م٦٦٠هـ).

الدنيا بطولها وعرضها بالقلّة والخسّة، فيقول: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، وقد رزقك الله جزءاً صغيراً من قطعتها الصغيرة، فلا أرزؤك فيه»[١].

ويمدّ أحدهم رجله إلى أمير جبّار، ويرسل إليه هذا الأمير صُرَّة من الذهب فيرفضها قائلاً: «إنَّ مَنْ يمدّ رِجْلَهُ لا يمدُّ يده»[٢].

فضلهم في صيانة المجتمع الإسلامي من الانهيار الخلقي والروحي:

فلا شك أنه لولا هؤلاء ـ أصحاب النفوس المزكّاة، الذين وصلوا إلى درجة الإحسان وفقه الباطن ـ لانهار المجتمع الإسلامي إيماناً وروحانية، وابتلعت موجة (المادية) الطاغية العاتية البقية الباقية من إيمان الأمة وتماسكها، وضعفت صِلَة القلوب بالله، والحياة بالروح،

---

(١) قالها الشيخ المرزا مظهر الدهلوي أحد كبار الشيوخ النقشبندية في القرن الثاني عشر الهجري.

(٢) هو عالم دمشق الشيخ سعيد الحلبي من رجال القرن الماضي.

والمجتمع بالأخلاق، وفُقد الإخلاص والاحتساب، وانتشرت الأمراض الباطنية، واعتلَّت القلوب والنفوس، وفُقد الطبيب، وتكالب الناس على حطام الدنيا، وتنافس أهل العلم في الجاه والمال والمناصب، وغلب عليه الطمع والطموح، وتعطلَّت شعبةٌ من أهم شُعب النبوّة ونيابتها، وهي: (تزكية النفوس، والدعوة إلى الإحسان، وفقه الباطن).

وكذلك توقَّفت الدعوة إلى الإسلام والدين الخالص أو فَتَرَت فترة طويلة، وانتشرت الأعمال الشركية والبدَع والخرافات في المجتمع الإسلامي، والبلاد التي دخلت في الإسلام حديثاً.

الأزمة الروحية والخلقية في بعض الأقطار الإسلامية، سببها وعلاجها:

انظر إلى بلاد ضعفت فيها الدعوة إلى الله والربانية وتزكية النفوس من زمان، وندر فيها وجود الدعاة إلى الله وتجديد الصِلَة بالله وإصلاح الباطن، بنفوذ الحضارة الغربية أو للقرب من مركزها أو بفعل عوامل أخرى؛ إنك تشعر فيها بفراغ هائل لا يملؤه التبحر في العلم ولا التعمُّق في التفكير،

ولا فَضْل من ذكاء، ولا غِنىً من أدب، ولا نسب قريب بلغة الكتاب والسنّة، ولا نعمة من استقلال، إنها أزمة روحية وخلقية لا علاج لها، ومشكلة من أدق مشكلات المجتمع لا حلَّ لها.

فالدَّهْماء والشعب فريسة المادية الرعناء، ونهامة المال العمياء، والأمراض الاجتماعية والخلقية. والمثقفون ـ الثقافة الدينية أو المدنية ـ فريسة الحرص على الجاه والمنصب والأمراض الباطنية من حسد وشحّ ورياء وكبر وأنانية وحب الظهور، ونفاق ومداهنة، وخضوع للمادة والقوة.

والحركات الاجتماعية والسياسية يسود عليها الأغراض وعدم تربية النفوس، وضعف القادة والمؤسسات، ويفسدها الخلاف والشقاق، وقلة الشعور بالمسؤولية، والتفكير الزائد في المادة وزيادة الرواتب.

والعلماء يضعِف سلطانَهم اهتمامُهم الزائد بالمظاهر وخوفهم الزائد من الفقر، وسخط الخاصة والعامة، واعتيادهم الزائد للحياة الرخية الناعمة.

ولا علاج لكل ذلك إلا في (التزكية النبوية) التي نطق

بها القرآن، وبعث لها الرسول ﷺ، وفي (الربَّانية) التي طولب بها العلماء ﴿وَلَكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

فراغ يجب أن يُملأ:

إنني لا ألح على منهاج خاص من التزكية دَرَج عليه جيل من أجيال المسلمين، واشتهر في الزمن الأخير بالتصوف ـ من غير حاجة إلى ذلك، فقد كان في كلمات الكتاب والسنة ومصطلحاتهما غِنيً عنه ـ ولا أبَرِّئ طائفةً ممن تزعم هذه الدعوة واضطلع بها، من نقص في العلم والتفكير، أو خطأ في العمل والتطبيق، ولا أعتقد عصمتها، فكل يخطئ ويصيب.

ولكنْ لا بد أن نملأ هذا الفراغ الواقع في حياتنا ومجتمعنا، ونسدَّ هذا المكان الذي كان يشغله الدعاة إلى الله والربانيَّة، والمشتغلون بتربية النفوس وتزكيتها وتجديد إيمانها، وصلتها بالله، والدعوة إلى إصلاح الباطن، والعناية بالفرد قبل المجتمع، وأقول للمتحمسين في نقد هؤلاء الدعاة والمنكرين عليهم، بلسان الشاعر العربي (الحطيئة):

أقِلُّــوا عليهـــم لا أبـــاً لأبيكـــم

من اللَّومِ أو سُدُّوا المكانَ الذي سَدُّوا

من تناقضات العقلاء[1]:

كانت لكبـار الأذكياء والعقلاء في كـل عصر ومصر ـ ولا تزال ـ تناقضات وغرائب يحار منها العقل، ويتعب في تعليلها أصدقاؤهم المقدّرون لفضلهم، وهي تدلّ على تعقّد النفسية البشرية وتركيبها الدقيق العجيب، وقصور العقل البشري عن العصمة والكمال.

فمن هذه التناقضات الطريقة ما شاهدناه من بعض العقلاء في عصرنا وبلدنا، أنّهم يقبلون أجزاء طعام خاص برغبة وشهوة، ويتناولونها على حدة، ويحرصون عليها، فإذا جُمعت وضُمّ بعضها إلى بعض، وتكوّن بتركيبها كائن جديـد يجمع بين لذائذهـا وفوائدهـا، وأطلـق على هـذه

---

(١) استفدنا في هذا الفصل بمجالس الشيخ الجليل مولانا محمد يعقوب المجدّدي البهوفالي؛ الذي رزقه الله حظاً وافراً في هـذا العصر في ضرب الأمثـال البليغـة، وتقريب المعاني البعيدة، بارك الله في حياته ونفع به.

(المجموعة) اسم جديد، قزّوه وعافوه، وابتعدوا عنه كل الابتعاد، وقد ينغّص ذلك عليهم العيش، ويفسد عليهم المؤاكلة أو المجالسة، ويفطن بعض الظرفاء أو بعض المعاكسين بهذه النقطة الحساسة فيهم، فيستغلّها للفكاهة أو المعاكسة، فيقدّم هذا النّوع من الطعام أو الحلوى، أو يذكر اسمه، فيثورون لذلك، أو يفارقون المجالس والأحبّة، ويبطش بعضهم في بعض الأحيان بمن يقزّزهم بذلك، أو يقدّم لهم هذا النوع من الطعام والشراب.

ومن هؤلاء ـ على سبيل المثال ـ من هو مغرم بالسكّر، وله هواية في اللبن والحليب، وغرام زائد بالسمّن، وحب مفرط للسميد، ورغبة زائدة في القشطة، يُقبل على كل جزء من هذه الأجزاء بنهامة، ويتحلَّب لكل واحد من هذا المجموع فمه ولا يكاد يشبع منه، فإذا جُمعت هذه الأجزاء كلها، ورُكّبت تركيباً خاصاً، ظهر فيه الحذق والصناعة، وسلامة الذوق ولطف الحسّ، وأطلق على هذا المجموع اسم جديد، فقيل: (الكنافة)[1] عافه وتقزّز منه، فإذا قُصد إيذاؤه بذلك ثار، واستشاط غضباً، وفقد رُشده واتزانه،

---

(١) نوع من الحلوى معروف.

ورؤي الشر في وجهه، وكان يسطو بالذي سبَّب له هذا الأذى، أو الإهانة والإثارة كما يتخيّل، وتحوّل المجلس من مجلس لطف وأُنس، ومتعة وفكاهة إلى مجلس خصام ومناظرة، ومشاتمة ومهاترة.

وأغرب من هذا شأن شيخ في الحارة يُعرف بسلامة العقل وصلاح الظاهر، ومتانة الدين، ولا يُنكر من أمره شيء، يوقّر الكبير ويرحم الصغير، ويكره البذاذة وهُجر الكلام؛ ولكن نقطة الضعف فيه أن لا يتحمل سماع كلمة (هل أنت بخير؟)، فإذا واجهه أحد المارَّة أو أهل الحيِّ بهذ السؤال ـ عن قصد أو غير قصد ـ ثارت ثائرته وفقد رُشده، فأغلظ له القول أو تقدّم إليه بالعصا ـ على حسب الظروف والأوضاع ـ وقد قابله أحد المعارف من أهل الحكمة واللباقة، فقال له في لطف وهدوء: «كيف أصبحت؟» قال: «أصبحت على نعمة الله وعافية البدن»، فقال: «هل تشكو ألماً في مكان من الجسم؟» قال: «لا» قال: «هل تشكو صداعاً؟» قال: «لا» قال: «هل تشكو سخونة أو فتوراً في الجسم؟» قال: «أبداً» قال: «هل تشكو انحرافاً في الصحة أو عدم اعتدال؟» قال: «كلا» فقال: «إذن أنت بخير فلماذا تغضب وتثور؟» وهذا معنى السؤال: «هل أنت بخير؟» وهذا

جوابه، فهدأ ثائرته وثاب إلى رشده، وعاد لا يثور على هذا السؤال.

وهكذا تتغيّر الانطباعات والأحوال النفسية، وردود الفعل في كثير من الأحيان، بتغيّر الأسماء أو بالعدول عن بعض الكلمات الممجوجة التي أُسيء استعمالها أو استغلّت لغرض خاص، أو اقترنت بها أجواء خاصة، أو تجارب فردية، فإذا غيّر الاسم أو شرح شرحاً خاصاً انقشع الضباب، وانحلّت العقدة النفسية، وزال المقت والكراهة، والتقزز والعياف، وقد رأينا بعض من لا يُتهمون بضعف في العقل ونقص في الطبيعة، يعافون طعاماً، فإذا قُدّم إليهم باسم قبلوه واستطابوه، واستكثروا منه، وأثنوا عليه وعلى صانعه.

وهذه قصة (المجموعة) التي اعتاد الناس أن يسمّوها (التصوف) ونحن نلحّ على أن نسمِّيها ـ كما شرحناه في المقال الأول ـ (بالتزكية) أو (الإحسان) أو (فقه الباطن) فإن كثيراً ممن رُزقوا الذكاء، وسلامة الفكر، وحسن القصد، والاستقامة على الدين، والغيرة عليه، إذا أطلقت أمامهم هذه الكلمة التي اقترنت بها معانٍ خاصة، ومدلولات

خاصة، وملابسات وتجارب، تقطبت جباههم، وظهرت الكراهة في وجوههم، وكان غاية حلمهم وأدبهم مع المتكلم وسعة أناتهم أن لا ينفجروا في الإنكار عليها، وعدّ مثالبها، وأن يمرّوا بها مرّ الكرام.

وأما المتحمّسون، فإنهم لا يملكون أنفسهم ولا يكفّون ألسنتهم عن الإنكار عليها، والحديث عن جناياتها على الدين وعلى الأُمة.

فإذا غُيِّر منهاج الكلام وأسلوب الحديث، فقيل لرجلٍ واعٍ يفقه الدين، ويعرف الكتاب والسنّة، ورُزق العقل والإنصاف «ما مكان الإخلاص في الدين وحياة الفرد المسلم؟» أجاب من غير تأخير: «مكان الروح من البدن، والرأس من الجسم، وقد نطق به الكتاب والسنة، وجعلاه شرطاً أساسياً لقبول الأعمال والعبادات»، فإذا قيل: «ما منزلة الإيمان والاحتساب؟ وما حظّهما في التعليم النبوية؟» قال: هما شرطان كذلك للرضا والقبول، وزيادة الأجور، وارتفاع المنزلة عند الله، فقد جاء في الحديث الصحيح: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه[1]».

---

(١) حديث متفق عليه.

وفي حديث آخر: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[1]، إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة، فإذا قيل: ما رأيك في الصبر والتوكل، والزهد في حطام الدنيا، والقناعة بالكفاف، وإيثار الآخرة على العاجلة، وإيثار المسلمين على النفس، والبذل والسخاء، وعدم خوف الفقر، والشوق إلى لقاء الله، والابتهال في الدعاء، وما فضل البكاء وغزارة الدمع من خشية الله، وما درجة الخشوع في الصلاة، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، والحنين إليها والإخبات فيها، والحرص على إطالتها، والإكثار منها، والاعتماد عليها في النوائب، والالتجاء إليها في النوازل، وطول القيام في الليل؟

وقيل: ما قولك في قطع الرجاء عما سوى الله؟ وجمع اليأس مما في أيدي الناس، وعدم مخافتهم وإقامة وزنهم، وصلة من قطع، والعفو عمَّن ظلم، والإحسان إلى من أساء، والدعاء لمن أذى واعتدى، والْتماس العذر للمسيئين والمخطئين، والدفاع عنهم، واتهام النفس بكل سوء ونقص، وعدم الثقة بها، والارتياح إليها، والتجافي عن دار الغرور،

---

(١) حديث متفق عليه.

والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله، وشدة الاهتمام بالخاتمة، وعدم الاطمئنان من مكر الله؟.

قال: هذه كلها مقاصد شرعية، ومطالب قرآنية، وفضائل مطلوبة، وأخلاق نبوية، تضافرت عليها النصوص، وتكاثرت في الآيات والأحاديث، ومثّلتها السيرة النبوية، وتحلَّى به الصحابة وفضلاء الأمة وطلب التحلّي بها في كل جيل من الأجيال المسلمين، في كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي، فإذا تجرّدت عنها الأمة الإسلامية قاطبة ـ أعاذها الله عن ذلك ـ كانت جسداً بلا روح، وخطّاً بلا وضوح، وكانت كالأمم السابقة اسم ولا مسمّى، ورسم ولا حقيقة، وجسد ولا حياة.

قيل: هذه الأجزاء المفردة، والفضائل المتشتّتة، والمقاصد الشرعية، تتكوَّن منها مجموعة يُطلق عليها اسم (التزكية) أو (الإحسان) أو (الربانية)، وقد طاب لكثير من الناس لأسباب نعرف بعضها ونجهل بعضها أن يسمّوها (التصوُّف) أو (الطريقة)، ويسمُّوا من تميز فيها وحمل لواءها، وتكفَّل بالدعوة إليها، والتربية على أساسها (الصوفي) أو (الشيخ)، ويا ليتهم لم يفعلوا ذلك، واكتفوا

بالكلمات التي وردت في صريح الكتاب والسنة، وكان في كلمة (المسلم) والعالم الرباني (المربي) و(الشيخ) كفاية ومقنع.

ولكن شأنهم في ذلك شأنهم مع أهل الاختصاص في فن خاص، وفي ناحية من نواحي العلم والدين، فسمّوا المنقطع إلى دراسة النحو وتعليمه، والحامل للوائه (النحوي) وسمّوا المنصرف إلى علم الغريب والعاكف على تحقيقه وتدوينه (اللغوي)، وسمّوا المبرّز في علم الحديث، والمتفوِّق فيه على الأقران، والمنقطع إلى نشره وتدريسه (المحدث)، وكذلك فعلوا مع علماء الأصول والكلام وعلم التوحيد، إلى آخر ذلك.

وقد كان أكثر هذه الصفات والفضائل مندرجة تحت كلمة (العالم) و(الشيخ) مجتمعة فيه، ثم جرت طريقة الاختصاص، والتبريز والتفوق في علم خاص، فسُمي أهل الاختصاص بأسماء وألقاب خاصة غلبت عليهم والتصقت بهم، وهكذا شأن العلوم والآداب والصناعات في كل أمة وفي كل بلد.

ولقائل يقول: إن كل ما ذكرتموه مقاصد شرعية،

وأخلاق نبوية، دعا إليها الكتاب والسنة، وحثّ عليها لسان الشرع، وقد تحلّى بها الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وكثير ممن جاء بعدهم من غير من مناهج وترتيبات، جرى عليها شيوخ الطريقة، وعضّوا عليها بالنواجذ، وتوارثتها الأجيال منهم، وقد بلغوا الذروة الشامخة فيها، وظفروا باللب واللباب، قلنا: لا مناقشة في ذلك، بل هي حقيقة تاريخية مسلّمة، لا تقبل شكّاً ولا جدالاً، واتفقت العقول السليمة والفطر المستقيمة على العناية بالمقاصد والغايات، دون الوسائل والآلات، فإذا حصل المقصود بأي وسيلة أو من غير وسيلة، فالعناية بالوسائل والجهاد فيها ضرب من العبث، ونوع من الفضول.

وقد كان هذا شأن العلوم اللغوية والدينية في العصر الأول، فكان الناس نحويين بالسليقة ومخالطة أهل اللغة، ولغويين بالفطرة أو النشأة، وفقهاء بالصحبة ودقة الملاحظة، ورواة محدثين بكثرة السماع وقوة الذاكرة، وأصحاب نفوس مذكّاة، وأخلاق فاضلة بطول صحبة الربانيين، وحرصهم على اقتفاء آثارهم، وحبهم المفرط لهم، ثم ضعفت الهمم، وفترت العزائم، وفقدت السليقة، واستعجمت اللغة، وضعفت الملكة، وخانت الذاكرة، فدوّنت العلوم، وأُلّفت

الكتب، ووضعت المناهج وأُنشأت المدارس، ووقع الاعتماد على الكتابة والتسجيل، والكتب والدفاتر، وتكوّن هذا النظام الواسع الذي نسمّيه (النظام المدرسي)، ولم يخلُ عصر من النبغاء والعبقريين، ونوادر الرجال الموهوبين، وأهل السليقة والغريزة، لا يُخضعون لهذه المناهج، ولا يُقهرون على تحقيقها وتطبيقها، ولكنهم شواذ، والعبرة بالكثرة.

وبعد ذلك كله، فالطريق مفتوح، ونعمة الله سابغة خالدة، والكتاب والسنة مشرعان رويّان، ومنهلان صافيان، لمن أمَّهما بصدق وإخلاص، وعزم وجدّ، لا ينخدع للنفس والشيطان، ولا يقنع بالظاهر دون الباطن، فلا يفتر عزمه، ولا تني همته، حتى يجمع بين الأحكام الفقهية وبين الأحوال النفسية، وبين (فقه الظاهر) و(فقه الباطن) وبين الجسد والروح، فيقتفي بالآثار النبوية، فما ثبت عنه، من رقة وخشوع، وإنابة وإخبات، وأزيز كأزيز المرجل في الصدر من الدعاء والبكاء، كما يقتفي بآثاره في هيئات الصلاة وآدابها، من ركوع وسجود، ورفع وعدم رفع، وسر وجهر، ويتبعه في أخلاقه وسجاياه وشمائله، كما يتبعه في أعماله وتصرفاته، ويجمع بين الاتباع والحب، وبين الجهد

والطبع، وبين الاكتساب والملكة، وبين العلم والعاطفة، فإن الاتباع الكامل المتواصل للرسول ﷺ في حياة تكثر فيها الوهاد والنجاد، وتفرش فيها الأشواك والأوراد، وتطغى فيه الشهوات والمغريات، وتتجدَّد فيه الفتن، كالحياة التي نحياها في هذا العصر، لا يمكن إلاّ بالحب العميق الذي يملأ جوانج النفس وينبع من أعماق القلب، ويقترن بالعاطفة، وبغير الحسبة الدقيقة للنفس، والاطلاع على غوائل النفوس ومكائد الشيطان، ومكامن الريب وتسويلات إبليس، الدقائق التي لا يُفطن لها ولا ينبَّه عليها إلاّ (الربَّانيون المخلصون) الذين فتح الله بصيرتهم وطهَّر قلوبهم. وأخرج من نفوسهم حظ الشيطان، ونطقت الحكمة على لسانهم، أولئك أئمة (التزكية) و(الإحسان) والأدلاّء على الله والهداة إلى طريق الفوز والسعادة: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة: ٢٢]. اهـ.

* * *

تجديد ميثاق الإسلام
وتحقيق صفات الإيمان والإحسان[1]

الحاجة إلى تجديد العهد والميثاق، وتزكية النفوس والأخلاق:

انتفع أهل بغداد ومَنْ أَمَّها من جهات بعيدة، بمواعظ الشيخ عبد القادر الجيلاني، الرقيقة المرقِّقة، وبخطبه المجلجلة المدوِّية، وتغيَّرت حياة ألوف من الناس، ولكنَّ مجالس الدعوة والوعظ حلقات حرة مؤقتة يؤمها أناس ويحضرونها، ثم يتغيَّبون عنها ويهجرونها، ويداوم عليها كثير من الناس، ثم يظلون على ما هم عليه من تقاليد وعادات، وأهواء وشهوات.

---

(١) فصل مأخوذ من كتاب رجال الفكر والدعوة في الإسلام، للمؤلف، ص٢٦٦، ط١٠، دار القلم ـ الكويت.

اتَّسع العمران في الحواضر والمدن، وشغلت الحياة وحاجاتها النفوس، فقلَّ من يعتكف في المدارس وينقطع إليها ليدرس العلوم الدينية ويتوسع فيها، وهكذا أصبحت هذه المدارس النظامية التي تخضع لقيود وتقاليد كثيرة، قاصرة عن إصلاح شَعْبي وتربية عامة، وبقيت منحصرة في نطاق ضيِّق، لا تفيد ولا تسعف إلا العدد القليل الذي يلتحق بها وينتسب إليها، فلا صِلَة لها بالشَّعْب، ولا صِلَة للشَّعْب بها إلا عند الاستفتاء أو ما يشبه ذلك، وإنما تعيش في عزلة عن الحياة.

وكذلك المؤلفون والمثقفون الكبار، فالفجوة الثقافية والعقلية بينهم وبين الشَّعْب واسعة وعميقة لا يعبُرها إلا الخاصة والشواذ، ثم إن صلة الناس بالمدارس والعلماء والمؤلفين صلة علمية عقلية لا تخضع لها القلوب والنفوس، ولا تنصبغ بها الحياة والأخلاق والطبائع إلا في النادر، ولا يتقيد بها الناس ولا يرتبطون بها ارتباطاً روحياً إلا في النادر.

كان المسلمون في حاجة إلى دعاة وشخصيات قوية جامعة، تجمع بين تلاوة الآيات، وتعليم الكتاب والحكمة،

وتزكية النفوس[1]. وهكذا تَخْلفُ الرسولَ ﷺ في أمته بعد انقطاع النبوة، وتجدِّد صلتها بالله والرسول ﷺ، وتجدِّد الميثاق الذي دخلت فيه هذه الأمة والمسلمون جميعاً، عن طريق الإيمان والنطق بالشهادتين، وما عاهدت عليه وبايعت الرسول ﷺ - مع بُعد الزمان والمكان - من السمع والطاعة، ومخالفة النفس والهوى والشيطان، والتحاكم إلى الله والرسول ﷺ، والكفر بالطاغوت، والمجاهدة في سبيل الله.

فقد تغافل عن ذلك الخلفاء، واقتصروا على الجباية والفتوح، وأَخْذ البَيْعة لأنفسهم وأولادهم. وعَجَز عن ذلك العلماء، فاشتغلوا بالفتوى والوعظ، والتدريس والعلم والتأليف، وإذا أرادوا ذلك لم يخضع لهم العامة، لأنهم لا يرون فيهم - إلا النادر القليل - الإخلاص والزهد وأثر الخلافة النبوية.

وهكذا ضَعُف الشعور في العامة والسوقة والفلاحين

---

(1) ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

والعَمَلة، حتى في كثير من الخاصَّة والمتعلِّمين، بأن الإسلام عهد وميثاق، وبَيْع وشراء بين العبد وربِّه، وأصبحوا أحراراً في تصرفاتهم، جامحين عاتين في شهواتهم، هَمَلاً وقطعاناً لا يضبطهم راع. وضعفت في كثير منهم الرغبة في الطاعات وبلوغ درجة الإحسان، والحصول على نور اليقين وبَشاشة الإيمان، وتقاصرت الهمم، وخمدت النفوس وأقبل الناس - إلا من عصم ربك - على اللذات والشهوات بنهامة وشره.

ضيَّعت الخلافة الإسلامية - كما وصفنا سالفاً - روح الخلافة وأمانة النبوة، وأصبحت مُلْكاً وسياسة، وإدارة وجباية، فقام في نواحي المملكة الإسلامية الواسعة خلفاء الرسول ﷺ والربانيون، يجدِّد الناس بدعوتهم وصحبتهم ميثاق الإسلام، ويدخلون في السِّلْم فقهاً وإرادة بعد ما دخلوا في الإسلام وراثة، وعادة، ويستردون بتعليمهم وتربيتهم حلاوة الإسلام ولذة الإيمان، ويخرجون من سلطان الهوى ورقِّ الشهوات وعبادة الناس، وينشطون في العبادات والطاعات، والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله.

من أشهر هؤلاء الدعاة والمربِّين: (الحسن البصري)، و(الفُضَيل بن عياض)، و(معروف الكَرْخي)،

و(الجُنيد البغدادي) رحمهم الله تعالى.

وانتهى الأمر إلى القرن السادس، وقد تباعد الزمان عن النبوة وآثارها وبركاتها، واتسعت الدنيا، وكثرت أسباب الغفلة واللهو، وطال على المسلمين الأمد، فقست قلوبهم.

نهضة الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد، وفضله وتأثيره في الدعوة والتربية، والتركيز على عقيدة التوحيد، والدعوة السافرة إليها:

هنالك نهض في بغداد ـ دار السلام وقلب عالم الإسلام ـ رجل قوي الشخصية قوي الإيمان، قوي العلم، قوي الدعوة، قوي التأثير، فجدَّد دعوة الإيمان والإسلام الحقيقي، والعبودية الخالصة، وأخلاق المؤمنين المُخْلَصين، وحارب النفاق الذي انتشر في المجتمع الإسلامي، بقوة منقطعة النظير في تاريخ الإصلاح والتجديد، وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه، يدخل فيه المسلمون من كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي، يجدِّدون العهد والميثاق مع الله، ويعاهدون على أن لا يشركوا ولا يكفروا ولا يفسقوا، ولا يبتدعوا، ولا يظلموا ولا يستحلوا ما حرم الله، ولا يتركوا ما فرض الله،

ولا يتفانوا في الدنيا، ولا يتناسَوا الآخرة.

صراحة الشيخ في عرض عقيدة التوحيد، والقول الفصل فيه:

وقد كان للشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني موقف حاسم حسَّاس ثائر في عرض عقيدة التوحيد في قوة ووضوح، وصرامة وصراحة، لا يشوبها شيء من التورية والغموض، يدل على ذلك ما روي عنه في شرح هذه العقيدة أثناء خطبة له، يقول فيها:

«اجعل الخليقة أجمع، كرجل كتفه سلطان عظيم ملكه، شديد أمره، مهولة صولته وسطوته، ثم جعل الغِلَّ في رقبته مع رجليه، ثم صلبه على شجرة الأرز على شاطئ نهر، عظيم موجه، فسيح عرضه، عميق غوره، شديد جريه، ثم جلس السلطان على كرسي، عظيم قدره، عالية سماؤه، بعيد مرامه ووصوله، وترك إلى جنبه أحمالاً من السهام والرماح، والنبل، وأنواع السلاح والقِسِّي مما لا يبلغ قدرها غيره، فجعل يرمي إلى المصلوب بما شاء من ذلك السلاح، فهل يحسن لمن رأى ذلك أن يترك النظر إلى السلطان، ويترك الخوف منه، والرجاء منه، ويخاف من المصلوب

ويرجو منه؟ أليس من فعل يسمَّى في قضية العقل عديم العقل ومجنوناً، بهيمة غير إنسان»[١].

وقد شنَّع الإمام عبد القادر الكيلاني على من يشرك بالله غيره، ويعتقد فيه النفع والضرر، والعطاء والمنع في بلاغة وقوة، فقال:

«يا مُعْرِضاً عن الحق عز وجل، وعن الصِّديقين من عباده، مقبلاً على الخلق، مشركاً بهم، إلى متى إقبالك عليهم؟ إيش ينفعونك؟ ليس بأيديهم ضرر ولا نفع، ولا عطاء ولا منع، لا فرق بينهم وبين سائر الجمادات فيما يرجع إلى الضر والنفع، الملك واحد، الضار واحد، النافع واحد، المحرِّك والمسكِّن واحد، المسلِّط واحد، المسخِّر واحد، والمُعْطي والمانع واحد، الخالق والرازق هو الله عز وجل[٢].

وقد دخل في هذا الباب ـ وقد فتحه الله على يد الشيخ عبد القادر ـ خلق لا يحصيهم إلا الله، وصلحت أحوالهم،

---

(١) فتوح الغيب، المقالة السابعة عشرة.
(٢) الفتح الربَّاني، المجلس الثالث عشر.

وحسن إسلامهم، وظل الشيخ يربِّيهم ويحاسبهم، ويشرف عليهم وعلى تقدُّمهم، وأصبح هؤلاء التلاميذ الروحيون يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة، وتجديد الإيمان على يد عبد مخلص، وعالم ربَّاني، شعوراً جديداً، وظل بينهم وبين الشيخ رباط وثيق عميق، أقوى من رباط التلاميذ بالأساتذة والشيوخ، ومن رباط الجند بالقائد، ومن رباط الرعية بالراعي، إنما هو رباط روحي ديني، لا يَهِنُ ولا ينحلُّ، وإنما هو ميثاق لا يُنْقص ولا يُنْكث.

ثم يجيز الشيخ كثيراً منهم ـ ممن يرى فيه النبوغ والاستقامة، والمقدرة على التربية ـ فينتشرون في الآفاق، يدعون الخلق إلى الله، ويربّون النفوس، ويحاربون الشرك والبدعة، والجاهلية والنفاق، فتنتشر الدعوة الدينية، وتقوم ثكنات الإيمان، ومدارس الإحسان، ومرابط الجهاد، ومجامع الأخوة، في أنحاء العالم الإسلامي.

سرُّ نجاح الشيخ في مهمته الإصلاحية:

وقد استطاع الشيخ عبد القادر أن يستمر في دعوته وجهاده أكثر من نصف قرن، في بيئة اشتد فيها الاستبداد، وكثرت فيها الوساوس، وشاعت فيها الوشايات

والسِّعايات، وأخفقت فيها الدعوات السياسية، وحورب فيها المعارضون للحكومة بقساوة وشدة، واحتمل الخلفاء والأمراء نقده الشديد وإنكاره على تصرفاتهم ومناهج حياتهم، وما كان ذلك إلا لإخلاصه الذي لا يتطرَّق إليه الشك، ولا ترتقي إليه شبهة، وزهده في كل ما يحرصون عليه ويضنُّون به، وبذله النصيحة والشفقة لكل من يدين بالإسلام، بل يتحلَّى بالإنسانية، وانقطاعه للدعوة إلى الله، والإرشاد إلى معالم الحق.

دعاة الإسلام ومشاعل الإيمان:

وقد كان لخلفائه وتلاميذه، ولمن سار سيرتهم في الدعوة، وتهذيب النفوس، من أعلام الدعوة وأئمة التربية في القرون التي تلته، فضل كبير في المحافظة على روح الإسلام، وشعلة الإيمان، وحماسة الدعوة والجهاد، وقوة التمرُّد على الشهوات والسلطات، ولولاهم لابتلعت المادية ـ التي كانت تسير في ركاب الحكومات والمدنيات ـ هذه الأمة، وانطفأت شرارة الحياة والحب في صدور أفرادها، وقد كان لهؤلاء فضل كبير لنشر الإسلام في الأمصار البعيدة التي لم تَغْزها جيوش المسلمين، أو لم

تستطع إخضاعها للحكم الإسلامي[1]، وانتشر بهم الإسلام في أفريقية السوداء، وفي أندونيسيا وجزر المحيط الهندي، وفي الصين، وفي الهند.

كيف خضع التتار الفاتحون لدين أمة مفتوحة؟!

ولما فتح التتار العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري، وأثخنوه جراحاً وقتلاً، ولم يتركوا فيه إلا روحاً ضعيفة ونَفَساً خافتاً، وفُلَّ سيف الجهاد والمقاومة، فأصبح لا يؤثِّر ولا يعمل، وأغمده المسلمون يأساً وقنوطاً، وآمن الناس بأن التتار لا يمكن إخضاعهم، وأن العالم الإسلامي قد كُتب عليه أن يعيش تحت حكم هؤلاء الهمج، وأن الإسلام لا مستقبل له.

قام هؤلاء الدعاة المخلصون، الذين لا يزال تاريخ الدعوة والإصلاح - على إحصائه واستقصائه - يجهل أسماء كثير منهم، يتسرّبون في هؤلاء الغلاظ الشداد، يفتحون قلوبهم للإسلام، حتى تفتحت له وأحبته، وصاروا

---

(١) راجع كتاب: (دعوة الإسلام)، لتوماس أرنلد الإنكليزي Preaching of Islam.

يدخلون في دين الله أفواجاً، ولم يمضِ على زحفهم على العالم الإسلامي وإذلالهم له كثير زمان حتى أسلم جلُّهم أو كلُّهم، وصاروا من حُماة الإسلام وحملة رايته، وكان منهم فقهاء وزهَّاد ومجاهدون.

هكذا أخضعوا للإسلام من أخضع العالم الإسلامي بالأمس، من شرقه إلى غربه، وأدخلوا أمة قهرت الأمم كلَّها في عصرها، في دين لا يحميه سيف، ولا يدافع عنه جيش، وقد كانت ثلاث ديانات ـ هي أعظم ديانات العالم ـ تتنافس في اكتساب هذه القوة القاهرة للعالم: (البوذية) و(المسيحية) و(الإسلام)، وكانت البوذية أقرب إلى فطرتها وبيئتها، وكانت النصرانية أرفع مكانة وأقرب زُلْفى في مجالس سلاطينها، ولكن الإسلام ـ بفضل دعاته المخلِصين ـ انتصر على مُنافستَيْه ـ البوذية والنصرانية ـ وأسلم التتار أمة وجِنْساً، وكوَّنوا دولاً إسلامية كان لكثير منها مآثر إسلامية يتجمَّل بها تاريخ الإسلام، وكان انتصار الإسلام على الديانتين المنافستين ـ البوذية والنصرانية ـ حادثة غريبة لا تُعلَّل إلا بمشيئة الله تعالى وتأييده، وتفوُّق دعاة الإسلام في الإخلاص والروحانية على دعاة البوذية والنصرانية، يقول أرنلد:

«نهض الإسـلام من رُكـام مجده الغابـر، وأنقاض عظمته التي قضى عليها التتار، وأخضع دعاةُ الإسلام هـؤلاء المغولَ الوحوش، الذين نثروا كنانـة ظلمهم وقساوتهم على المسلمين، لقد واجه المسلمون في هذا السبيل مصاعب عظيمة، ولقوا عنتاً كبيراً، فقد كانت تنافسهم في ذلك ديانتان عظيمتان ـ البوذية والنصرانية ـ وكان دعاتهما يحرصون أشد الحرص على إقناع التتار والمغول بعقيدتهم وديانتهم.

لقد كانـت منافسـة هذه الديانـات العظمى في إخضاع القـوة القاهرة لعقيدتها صراعـاً عجيباً ينظـر إليه التـاريخ، وينظر إليه العالم بدهشـة واسـتغراب، كلٌّ يحاول أن يخضِعَ هـؤلاء الوحـوش القُسـاة، الذين داسـوا هذه الديانـات وحطَّموها.

لم يكن أحد يتوقع أن الإسلام سينتصر في هذه المعركة ويهزم البوذية والنصرانية، ويستأثر بالتتار، فقد كانت عاصفة هجومهم وغـارتهم أشد على المسـلمين منها على غيرهم، وكانت خسـارتهم في ذلك أعظم من خسارة أية أمة ودولة وديانة.

لقد أصبحت العـواصم الإسلامية التي كانـت مهد

العلوم والحضارة، ومقر نوابغ قارة آسيا وعباقرة العلم والفن، خَراباً يَباباً، وقتل التتار علماء المسلمين وفقهاءهم، وأسروهم واستعبدوهم، وقد كان ملوك التتار وأمراؤهم يعطفون على كل ديانة سوى الإسلام.

. . . ولكن رغم هذه المصاعب، دان المغول والأمم الوحشية التي جاءت بعدهم بديانة أمة داستها بأقدامها واعتنقت الإسلام»[1].

ولا شك أن الفضل في ذلك ـ كما صرَّح به (أرنلد) وغيره من المؤرخين الإسلاميين ـ يرجع إلى هؤلاء الدعاة المخلِصين وربانيتهم، وحرصهم على إرشاد هؤلاء الظالمين الذين سفكوا دماء المسلمين من غير رحمة، وإنقاذهم من الوثنية والهمجية، وهدايتهم ونجاتهم، وانتهازهم لذلك كل فرصة.

قصة تاريخية، تشبه أسطورة خيالية:

وقد نقل (أرنلد) قصة طريفة تدل على أسلوب دعوتهم ورقَّة موعظتهم، وتجرّدهم من الأنانية والكبرياء، وكم لها

---

(١) دعوة الإسلام، ص٢٤٠ـ٢٤١، ٢٤٥ـ٢٤٦.

من أمثال فاتت التاريخ، وأفلتت من أعين المراقبين وأقلام المسجلين.

«أسلم سلطان (كاشغر) الذي كان يُسمَّى (تغلق تيمور خان) (١٣٤٧ ـ ١٣٦٣م) على يد الشيخ (جمال الدين) الذي جاء من بخارى، وكان من خبره، أنه كان مع رِفْقة له في رحلته، فمروا بأرض السلطان التي كان قد حماها للصيد وهم لا يشعرون، وأمر بهم الملك، فأوثقوا، وعرضوا عليه، وقد استشاط غَضَباً: كيف دخلتم في حماي من غير إذن؟ قال الشيخ: نحن غرباء، ولم نشعر بأننا نمشي على أرض ممنوعة.

ولمَّا علم الملك أنهم إيرانيون، قال في احتقار وسخرية: حتى الكلب أفضل من الإيرانيين، قال الشيخ: صدق الملك، لولا أن الله أكرمنا بالدين الحق لكنا أذلَّ من الكلاب!!.

وتحيَّر الملك ومضى للصيد، وبقيت الكلمة تشغل فكره، وأمر بعرضهم عليه بعد الصيد، ولما رجع، خَلاَ بالشيخ وقال: فسِّرْ لي ما قلت لي، وأخبرني ما تعني بالدين الحق، وفسر الشيخ الإسلام في حماسة وقوة تفسيراً رقَّ له

قلب السلطان، وصوَّر الكفر تصويراً بشعاً هائلاً، فزع منه السلطان، وأيقن أنه على ضلال وخطر، ولكن السلطان رأى أنه ـ لو أعلن الإسلام، لما استطاع أن يدخل قومه في الإسلام، ورجا الشيخ أن ينتظر، حتى إذا سمع أنه وُلِّيَ الملكَ، وجلس على أريكة الحكم، زاره. وكانت المملكة (الجغتائية) قد توزَّعت في إمارات متعددة، واستطاع (تغلق تيمور) أن يجمعها، ويكون منها مملكة كبيرة.

ورجع الشيخ (جمال الدين) إلى بلاده، ومرض مرضاً شديداً. ولما حضرته الوفاة، دعا ولده (رشيد الدين) وقال له: إن (تغلق تيمور) سيكون في يوم من الأيام ملكاً عظيماً، فإذا سمعت بذلك تزوره، وتقرئه مني السلام، وتذكره بما وعدني به (من اعتناق الإسلام). وكان كذلك، فقد بويع (تغلق تيمور) بالملك، وجلس مكان أبيه، ودخل الشيخ (رشيد الدين) في المعسكر لينفذ وصية أبيه، ولكنه لم يَخْلُص إلى الملك، فاحتال، وبدأ يوماً يؤذن بصوت عالٍ عند خيمة السلطان في الصباح الباكر، فطار نوم السلطان وغضب وطلب الشيخ (رشيد الدين) وحضر الشيخ، وبلغ السلطان تحية والده، وكان السلطان على ذِكْرٍ منه، فنطق

بالشـهادتين وأسلم، ثم نشـر الإسلام في رعيته، وأصبح الإسلام ديانة الأقطار التي كانت تحت سيطرة أولاد (جغتائي ابن جنكيز خان)[1].

* * *

(١) دعوة الإسلام، لأرنلد، ص٢٥٦.

شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية
كعارف بالله ومُحقّق

اكتشاف جديد في شخصية ابن تيمية :

عُـرف شـيخ الإسلام ابن تيمية ـ بوجه عام ـ كعالم متكلِّم، وفقيه جدليٍّ، ومحدِّث كبير، ولا يتخيَّله الدارسون لكتاباته العلمية ومؤلفاته الجدلية، أكثر من أنه كان عالماً ذكياً، واسع العلم، قوي الحجة، غزيـر المادة، والذين عرفـوه عن طريق التـراجم التي كتبها عامة المؤرخين، أو قاسوه على تلاميذه المتأخرين والمنتسبين إليه[1] لا يرون

---

(١) عدا تلميذه النجيب الحافظ ابن قيِّم الجَوْزية الذي بحث عن نـاحية أستاذه الروحية الباطنة، في كتـابه (مدارج السالكين شرح منازل السائرين)، لشيخ الإسلام الهروي، وأثبت فيه أن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم كانا يحتلان مكانة عليا في المعرفة والروحانية، والذوق الباطني.

فيه شيئاً أكثر من محدِّث جاف، وعالم متبحِّرٍ في العلوم الظاهرة.

أما ما ذكره الحافظ ابن قَيِّم الجَوْزية في (مدارج السالكين) من أحواله وأقواله بمناسبات شتى، وكذلك ما ذكره العلاَّمة (الذهبي) وأمثاله في ترجمته من أخلاقه وأذواقه، وعاداته وشمائله، وأشغاله وأعماله، يدل دلالة واضحة على أنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية يستحق بكل جدارة أن يُعدَّ من العارفين، ورجال الله في هذه الأمة، وهنالك ينشرح كل صدر للاعتراف، بأنه كان يتبوأ تلك المكانة، ويتمتع بجميع تلك الغايات التي لا تتيسر - بوجه عام - إلا برياضات شاقَّة، ومجاهدات طويلة، وتربية أئمة الفنّ، ودوام الذكر والمراقبة، وذلك ما يعبِّر عنه الصوفية المتأخرون بالنسبة مع الله، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

تنوع الوسائل، ووحدة الغاية:

ولا يخفَى على أصحاب البصيرة، أن الذوق والمعرفة، والإيمان الحقيقي واليقين والإخلاص، والاستقامة، وتزكية الباطن وتهذيب الأخلاق، والاتِّباع الكامل للسنَّة، والتفاني

في الشريعة، غايات حقيقية مقصودة، تتخذ لأجلها وسائل مختلفة، وطرق متعددة، ولا يقصر المحققون اكتسابها على طريقة واحدة، وقد كان الطريق القوي المؤثر للحصول على هذه الغايات في فجر تاريخ الدعوة الإسلامية، صحبة النبي ﷺ، التي لا يجهل تأثيرها وقوتها أحد.

ولما حرمت أمة الإسلام هذه النعمة، قام خلفاء النبوة، وأطباء هذه الأمة في عصورهم بوصف عِوَض عنها، وأخيراً ركَّزوا جلَّ عنايتهم لأسباب مختلفة على الصحبة وكثرة الذكر ولها طريقة مدوَّنة منقَّحة تعرف بنظام التصوف والسلوك.

غير أنه لا مساغ لإنكار أن الحصول على هذه الغايات والمقاصد لا يتوقف على هذه الوسائل، فإن الإيمان والاحتساب، ومحاسبة النفس، وتتبُّع السنَّة والاشتغال بكتب السنَّة والشمائل، درساً وتدريساً، وخدمة ونشراً، مع الحب والإجلال، وكثرة الصلاة على النبي ﷺ، وخدمة الخلق والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة والتبليغ بصدق النيّة والاحتساب، كل ذلك ـ عدا الاجتباء والموهبة التي يخص بها بعض الأفراد ـ سبب للتقرُّب إلى الله وحصول النسبة معه، إذا صدر عن إيمان واحتساب، وحضور واهتمام، ولا مانع من أن تكون

الوسائل مختلفة والطرق متعددة، فإن الغاية واحدة، ولا شك أن جملة أحوال شيخ الإسلام تدل بوضوح على أنه كان يتمتع بهذه الغاية، وذلك ما أريد إيضاحه في السطور التالية :

ميزان كمال الإنسان، وآية بلوغه درجة الولاية والتحقيق :

ونستطيع أن نشهد لرجل بأنه كان من العارفين والمحقِّقين الكاملين، وممن وضع الله لهم القبول، نظراً إلى الأحوال والأذواق، والعادات العامة التي عاش فيها، ولا يكون له مقياس ظاهر ودليل منطقي .

وقد يخطئ من رزق سلامة الفطرة وصفاء الذوق، لكثرة ما يدرسه من أحوال العارفين ورجال الله، ويلزم صحبتهم بملكة ووجدان، يتمكن بهما من الحكم في ذلك، ولكن هناك علامات وأحوالاً يدرك بها، أن مستوى هذا الرجل الديني، أرفع من مستوى عامة الناس، وهو يتمتع بأخلاق رجال الله، وأذواقهم، وفهم الدين الصحيح، مثلاً ذوق خاص للعبودية والإنابة إلى الله، وتذوُّق العبادة والانهماك فيها، ولذة الدعاء والابتهال والزهد، والانقطاع عن الدنيا وازدرائها، وسجية السخاء والإيثار، والتواضع، وإنكار الذات، والسكينة والسرور، والكمال في اتّباع السنّة،

والقَبول في الصالحين، وشهادة العلماء له، وتصلُّب أتباعه ومحبيه في الدين، وحُسْن سيرتهم وما إلى ذلك.

وبهذه المناسبة ننقل للقراء شهادات معاصري شيخ الإسلام، وما سجّله المؤرخون في كتبهم عن هذه القسمات التي سبق ذكرها.

ذوقه في العبودية والإنابة إلى الله:

إن الذوق الحقيقي الصحيح للعبودية والإنابة إلى الله شهادةٌ جليَّة على أن قلبَ صاحبه عامرٌ باليقين، ومغمور بجلال الله وكبريائه، ومنوَّر بمشاهدة قدرة الله سبحانه وتعالى وجلاله، وبشعور العجز والضعف أمامه، وحينما يرسخ هذا اليقين والمشاهدة في الباطن، يتجلَّى ذلك في الأعمال والألفاظ، والفرق بين الحقيقة والصناعة في ذلك كالفرق بين الأصل والنقل، وهو لايخفى على صاحب البصيرة والوجدان، وقد قال الشاعر العربي[1]:

«ليس التكحُّل في العينين كالكحل».

---

(١) هو أبو الطيّب المتنبي.

والأحوال التي عاش فيها شيخ الإسلام ابن تيمية تشهد بأنه كان متحلّياً باليقين والمشاهدة، التي بعثت فيه صفة من الافتقار والاضطرار، والعبودية والإنابة، وقد روي أنه إذا أشكلت عليه مسألة أو صعب فهم آية التجأ إلى جامع في مكان موحش، ووضع جبهته على التراب، وردَّد قوله: «يا معلِّم إبراهيم فهِّمني»[1].

ويقول العلامة الذهبي:

«لم أرَ مثله في ابتهاله واستغاثته وكثرة توجهه» ويقول: «إنه ليقف خاطري في المسألة أو الشيء أو الحالة التي تشكل عليَّ، فأستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل، حتى ينشرح الصدر وينجلي إشكال ما أُشكل».

ولا يَحوْل دون هذه الحالة نوع من الجلوة، والمجالس، وصخب الأسواق، يقول: وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدروب أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي»[2].

---

(١) العقود الدرية، ص٦.
(٢) الكواكب الدرية، ص١٤٥.

وعندما ينشأ هذا اليقين، وذوق العبودية في النفس ويتمكن في الباطن، يشعر الإنسان بعجزه وافتقاره، وضعفه وقلّة بضاعته، ويتمثل كأنه واقف على الباب الملكي بكَشْكوله[1] الفارغ، ويستجدي من الله رحمته وفضله.

وحياة ابن تيمية وما ذكر له من أحوال وأقوال، ومواقف تشهد بأنه كان ينعم بنعمة الفقر وعزّة التذلُّل، يقول ابن قيِّم: إنني لم أشاهد هذه الحالة عند أي شخص، بمثل ما شاهدته في شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد كان يقول: «ما لي شيء ولا منِّي شيء، ولا فيَّ شيء» وطالما كان ينشد البيت التالي:

أنا المكدي، أنا المكدي وهكذا كان أبي وجدّي

تذوُّق العبادة، والانهماك فيها:

لا يستطيع أي إنسان أن يتذوّق العبادة وينهمك فيها ما لم يشعر بلذتها ويذق طعمها[2]، وما لم تحتل العبادة

---

(١) وعاء المتسوّل الذي يجمع فيه رزقه.

(٢) وقد ورد في الحديث: «جُعلت قُرَّة عيني في الصلاة» (رواه النسائي) وكان النبي ﷺ، يقول: «يا بلال أقمِ الصلاة أرِحْنا بها» (رواه أبو داود).

محل الدواء، والغذاء والقوة، ويصل إلى درجة تصبح الصلاة فيها لعينه قرة ولروحه مسرَّة، أما الشيخ ابن تيمية فيشهد معاصروه والمطلعون على أحواله بأنه كان له القدح المعلَّى في هذه الثروة الغالية، وكان له ذوق خاص في العبادة، والمناجاة والخَلْوة، وكان شديد الشَّغَف بهذه الناحية، عظيم الانهماك فيها، جاء في (الكواكب الدرية):

«وكان في ليله منفرداً عن الناس كلِّهم، خالياً بربه عزَّ وجلّ، ضارعاً إليه، مواظباً على تلاوة القرآن العظيم، مكرراً لأنواع التعبّدات الليلية والنهارية، وكان إذا دخل في الصلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤه حتى يميل يمنة ويسرة»[(١)].

ولا شكّ في أن قوة أصحاب الذوق، وأهل القلوب ونشاطهم، إنما يقوم على الذكر والعبادة، فإذا اختلَّ ذلك، انهارت قواهم، ويشعرون كأنهم أصيبوا بفاقة، يقول ابن قيم:

«وكان إذا صلَّى الفجر يجلس في مكانه، حتى يتعالى النهار جداً، يقول: هذه غدوتي، لو لم أتغدَّ هذه الغدوة سقطت قواي»[(٢)].

---

(١) الكواكب الدرية، ص١٥٦.
(٢) الرد الوافر، ص٣٦.

ويرزق الله سبحانه وتعالى الاستقامة بعد هذا الذوق والاهتمام، فيصبح الذكر والعبادة، والمواظبة عليهما طبيعة الإنسان، يقول العلامة الذهبي: له أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية[1].

الزهد في الدنيا، وازدراؤها:

لا ينبعث الدافع الصحيح الخالص للزهد في الدنيا وازدرائها ما لم تتكشف حقيقة الدنيا بوضوح، وما لم يطرأ على المرء حال: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠]، وذلك لا يتحقق بدون اليقين، والمعرفة الصحيحة، والاتصال بالله.

وقد ذكر معاصروه أحوال زُهْد شيخ الإسلام، وتجرُّده من الدنيا وافتقاره إلى الله، يقول زميله في الدراسة ومعاصره الشيخ علم الدين البرزالي المتوفَّى سنة ٧٣٨هـ: «جرى على طريقة واحدة من اختيار الفقر والتقلل من الدنيا

---

(١) الرد الوافر، ص١٨.

وردّ ما يفتح به عليه»[١].

ومن انصبغ بهذه الصبغة، ورزقه الله نعمة غنى القلب الخالدة، تلاشت في عينه مملكة كسرى وقيصر، ورأى النظر إليها كفراناً بنعمة الله تعالى، وحجوداً لمننه، وهو ينشد في نشوة الحب والمعرفة ما معناه:

«إنني لا أرضى بإعطاء مُسوحي عِوَضاً عن حُلَّة الملوك، ولا أرضى ببيع فقري بمُلك سليمان، إن الثروة التي نلتها في آلام الفقر، لن أرضَى باستبدالها بتنعم الملوك».

ومَنْ جهل حاله يسيء به الظن، ويتهمه بالطمع في الملك والحكم، ولكنه يتأسَّف على جهله، وفساد ذوقه، ويقول: كيف يمكن النظر إلى هذا الملك الفاني بعد هذه الثروة الغالية، والنعمة الخالدة؟ وقد كانت هذه قصة الشيخ ابن تيمية، فقد قال له الملك الناصر ذات مرة: سمعت بأن الناس أطاعوك، وأنت تفكر في الحصول على الملك. فرد عليه الشيخ قائلاً بصوت عال سمعه الناس الحاضرون كلّهم:

---

(١) الرد الوافر، ص٦٥.

«أنا أفعل ذلك؟ والله إن ملكك، وملك المَغْل لا يساوي عندي فلساً»[1].

السخاء والإيثار:

ومما يتصف به رجال الله، والعاملون بالسنّة النبوية بصفة خاصة، هو السخاء والإيثار، وقد بسط الحافظ ابن القيِّم الكلام في أسباب شرح الصدر في كتابه (زاد المعاد)، وذكر ما للإحسان إلى الخلق، ونفعهم بالمال والجاه والبدن، من التأثير العميق في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب[2].

وقد اعترف معاصروه وأحبته، بسخائه، وأثنَوا على جوده وإنفاقه، وقد جاء في (الكواكب الدرية): «وهو أحد الأجواد الأسخياء الذين يضرب بهم المثل»[3].

ويتحدَّث الحافظ ابن فضل الله العمري، أحد معاصري الشيخ عن جوده وسخائه، فيقول:

---

(١) الكواكب الدرية، ص١٦٦.
(٢) راجع زاد المعاد: ١/ ١٥٣، طبع المطبعة المصرية.
(٣) الكواكب الدريّة، ص١٤٦.

«كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث، فيهب ذلك بأجمعه، ويضعه عند أهل الحاجـة في موضعـه، لا يأخذ منه شيئاً إلا ليهبه ولا يحفظه إلا ليذهبه»[1].

وقد بلغ من السخاء والإيثار أن كان يخلع ما كان عليه من ثياب، ويقدِّمها إلى السائل، إذا لم يجد شيئاً آخر، يقول الحافظ ابن فضل الله: «كان يتصدَّق، حتى إذا لم يجد شيئاً نزع بعض ثيابه فيصل به الفقراء»[2].

ويقول أحد الرواة:

«وكـان يتفضَّل من قُـوتِه الرغيف والرغيفين، فيؤثر بذلك على نفسه»[3].

ومن مواقف الإيثـار المحرجـة أن يعامل المرء أعداءه ومعارضيه، برحابة الصدر، بل بالعفو عنهم، والإحسان إليهم، وفوق ذلك بالدعاء والنصح، وهذا منصب خطير

---

(١) الكواكب الدرية، ص١٥٨.

(٢) الكواكب الدرية، ص١٥٧.

(٣) المرجع السابق.

لاينالُه إلا من تجاوز حدود الكبر والأنانية، ونسي نفسه، وأنعم الله عليه بنعمائه ورزقه من السكينة والسرور ما يذوب أمامه كل عداء ومعارضة، فيجد قلبه عامراً بدافع النصح والرثاء لأعدائه، وقد سبق أنه عندما أُطلق سراحه في سنة (٧٠٩هـ) مرة أخرى خلا به السلطان واستفتاه في قتل أولئك القضاة الذين قاموا بحماية (جاشنكير) وأفتَوا بعزل السلطان، وزاد له السلطان، قائلاً: إنهم أثاروا عليك الضجة والأقاويل، وآذَوك. فما وسع ابن تيمية إلا أن مدحهم وأثنَى عليهم أمام السلطان، وشفع لهم بالعفو والصفح عنهم، ومنعه عن قتلهم، وقد مدحه القاضي ابن مخلوف المالكي، الذي كان من أشد معارضي شيخ الإسلام ومنافسيه، بقوله: ما رأيت كريماً واسع الصدر مثل ابن تيمية، فقد أثرنا الدولة ضده، ولكنه عفا عنا بعد المقدرة، حتى دافع عن أنفسنا وقام بحمايتنا.

يقول تلميذه النجيب، ورفيقه في كل آن: «كان يدعو لأعدائه، ما رأيته يدعو على واحد منهم، وقد نَعَيْتُ إليه يوماً أحد معارضيه الذي كان يفوق الناس في إيذائه وعدائه، فزجرني، وأعرض عني، وقرأ: «إنا لله وإنا إليه راجعون» وذهب لساعته إلى منزله، فعزَّى أهله، وقال: «اعتبروني

خليفة له، ونائباً عنه، وأساعدكم في كل ما تحتاجون إليه» وتحدَّث معهم بلطف وإكرام بعث فيهم السرور، وبالغ في الدعاء لهم حتى تعجَّبوا منه.

إنَّ مكانة العفو والإحسان، والشفقة والرحمة مع الأعداء، أرفع وأسمى من مكانة الإيثار المالي والمادي بكثير، إنها مكانة لا يسعد بها إلا الأولياء والصدِّيقون»، وقد كان لابن تيمية قدم راسخة في هذه المكانة، وكأنه كان ينشد بلسان حاله ما أنشده الشاعر الرباني الذي سعد بهذه المكانة بالفارسية، وهذا معناه:

«إنَّ مَن ضاق صدره عن مودتي، وقصرت يده عن معونتي كان الله في عونه وتولَّى جميع شؤونه، وإن كل من عاداني وبالغ في إيذائي لا كدَّر الله صفو أوقاته ولا أراه مكروهاً في حياته، وإنَّ كل من فرش الأشواك في طريقي، وضيَّق عليَّ السُّبُلَ، ذلَّل له كلّ طريق، وحالفه النجاح والتوفيق».

التواضع وإنكار الذات:

إنَّ التواضع وإنكار الذات من خصائص رجال الله الخاصة، وهو المنصب الأعلى في الدين، أفضل من ألف

فضيلة وألف كرامة، ولا يبلغ الإنسان هذه المنزلة، إلا أن تموت الأنانية، ويتزكّى قلبه من جميع الشوائب والعلائق، وقد كان شيخ الإسلام متحلّياً بهذه الفضيلة الكبرى على فضائله العلمية، وسموّه الديني والعلمي، وأقواله تشهد بما كان يتصف به من التواضع والربانية وهضم النفس، وإنكار الذات، يقول الحافظ ابن القيِّم: إنه كثيراً ما كان يقول: «ما لي شيء، ولا منّي شيء، ولا فيَّ شيء». وإن مدحه أحد في وجهه، قال:

«والله إني إلى الآن أجدِّد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً»(١).

وقد يقول لمن مدحه: «أنا رجل ملَّة: لا رجل دولة»(٢).

وإذا بلغ الإنسان إلى هذه المنزلة من العبودية، وإنكار الذات، لا يرى له حقاً على أحد ولا يطالبه بشيء، ولا يعاتب أحداً ولا ينتقم لنفسه في أي حال، وقد بلغ به الله إلى هذه الدرجة، يقول ابن القيِّم:

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٦٩٦.

(٢) الكواكب الدرية، ص١٦٤.

«سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه يقول: العارف لا يرى له على أحد حقاً، ولا يشهد له على غيره فضلاً، ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب»[1].

ويعلم المطَّلعون على أحواله جيداً أنه في ذلك إنما يتحدث عن نفسه ويحكي حاله.

السكينة والسرور:

وبعد هذا الإيمان واليقين، وهذا الاتصال الصحيح بالله تعالى والتحرر من الخلق، وانطلاق القلب من القيود المادية، يحصل للعارف السكينة والسرور يذوق بهما لذة النعيم والجنة في الدنيا، يقول ابن قيِّم: إن شيخ الإسلام قال مرة:

«إن في الدنيا جنَّة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة»[2].

ولا يخفَى على أهل البصائر أن عباد الله تعالى

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٤٩٦.

(٢) الرد الوافر، ص٣٦.

المخلَصين يتحققون في الدنيا بصفة نعمة:

﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢]، ويذوقون لذتها، ويرون نموذجها في الدنيا، ولا شك أن شيخ الإسلام ظفر بهذه النعمة، كما ذكر أصحابه، وقد قال مرة في حماس:

«ما يصنع أعدائي بي؟ إن جنتي وبستاني في صدري، إن رُحْت فهي معي لا تفارقني»[١].

وظلّت نسبة السكينة والرضَى هذه لا تفارقه في حياته، وبعد مماته، يقول ابن قيِّم:

«زرته ذات ليلة في الرؤيا، وذكرت له بعض الأعمال القلبية، فقال: أما أنا فطريقي الفرح والسرور به»[٢] ويقول ابن قيِّم في (مدارج السالكين):

«وهكذا كانت حاله في الحياة، يبدو ذلك على ظاهره، وينادي به عليه حاله»[٣].

---

(١) الوابل الصّيّب، ص٦٦.
(٢) إغاثة اللهفان.
(٣) مدارج السالكين.

الكمال في اتِّباع السنَّة:

وتبتدئ هذه المكانة ـ مكانة القبول والولاية ـ باتِّباع السنَّة، وتنتهي بكمال اتباع السنة، وقد اعترف الناس جميعاً حتى الأعداء، بشغف شيخ الإسلام بالسنة وانهماكه في الحديث، ولم يكن هذا الشغف والانهماك علمياً أو نظرياً فقط، وإنما كان يتصل بالسنّة عملياً وفي الظاهر، وقد شهد معاصروه أنهم لم يروا إجلال مكانة الرسول ﷺ والاهتمام باتّباع سنّته عند أحد من العلماء، مثل ما رأوا ذلك عند شيخ الإسلام ابن تيمية، يقول الحافظ سراج الدين البزاز، وهو يقسم بالله:

«لا والله ما رأيت أحداً أشد تعظيماً لرسول الله ﷺ، ولا أحرص على اتّباعه، ونصر ما جاء به منه»[1].

وقد كانت هذه الناحية تستحوذ عليه، وتسيطر على قلبه، فكل من رآه شهد قلبه بكمال اتّباعه للسنّة، وحبه العميق للرسول ﷺ، يقول العلامة عماد الدين الواسطي:

«ما رأينا في عصرنا هذا مَنْ تتجلّى النبوَّة المحمدية

---

(١) الكواكب الدرية، ص١٤٩.

وسننها من أقواله وأفعاله، إلا هذا الرجل، يشهد القلب الصحيح، أن هذا هو الاتباع حقيقة»[1].

قبوله في الصالحين، وشهادة علماء عصره له:

إن ثناء حَشْد من الناس على رجل، لا يعتبر دليلاً على قبوله عند الله، واستقامته وعلو منزلته، أما إذا شـهد له رجال العلم والبصيرة وأصحاب الصـلاح والتقوى في عصره، فلا شك أنه يعتبر دليلاً على قبوله وعلو منزلته، ولا بدَّ من أن يتصف أتباعه ومحبُّوه، وجلساؤه بالصلاح والسداد، وحُسن الاعتقاد والتقوى والاهتمام بالآخـرة، ويمتازوا من أبنـاء عصرهم في تديُّنهم، وحُسن سيرتهم.

وهذا كان شأن شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد شهد بفضله وصحة اعتقاده، وسلامة عقيدته، ومكانته العالية، كبار رجال العلم والبصيرة، وأصحاب الصلاح والرشد في عصره، واعترفوا بعلو منزلته في ذلك، فمدحوه، وأثنَوا عليه، أما معارضوه، فقد كان معظمهم ممن يتزلَّفون إلى

---

(١) جلاء العينين، ص٨.

الدولة، ويطلبون الدنيا، ويطمعون في الجاه والمنصب[١] دائماً، يقول مؤلف (الكواكب الدرية):

«قالوا: ومن أمعن النظر ببصيرته، لم ير عالماً من أهل أي بلد شاء موافقاً له إلا ورآه من أتبع علماء بلده للكتاب والسنة، وأشغلهم بطلب الآخرة والرغبة فيها، وأبلغهم في الإعراض عن الدنيا، والإهمال لها، ولا يرى عالماً مخالفاً له، منحرفاً عنه، إلا وهو من أكبرهم نَهْمة في جمع الدنيا وأكثرهم رياء، وسمعة، والله أعلم»[٢].

ويقول العلامة الذهبي:

«أخيف في نصر السنة المحفوظة حتى أعلى الله تعالى مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له»[٣].

الفراسة والكرامات:

وبالرغم من أن الكشوف والكرامات، لا تعد جزءاً

---

(١) ويستثنى من هذه الكلية من عارضه لسوء تفاهم، أو اختلفوا معه في أصول بعض المسائل العلمية فحسب، وما من عام إلا وقد خص منه البعض.

(٢) الكواكب الدرية، ص١٦١.

(٣) جلاء العينين، ص٦.

من الولاية والقبول، ولا دليلهما، وقد أوضح المحققون، فقالوا: «الاستقامة فوق الكرامة» وهي قضية لا تقبل الجدل، ولكن الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى ينعم على كثير من عباده المخلَصين بهذه النعمة، فتظهر من أيديهم أو ألسنتهم وقائع تؤيد قبولهم ووجاهتهم عند الله والناس، وقد اتفق أهل السنّة على أن «كرامات الأولياء حق» وتؤيد ذلك بعض الوقائع والشواهد في الكتاب والسنّة أيضاً، وقد وجد في مؤلفات شيخ الإسلام إثبات هذه الحقيقة، وتقرير هذه المسألة.

وقد شهد معاصروه وتلاميذه ومحبّوه، بتلك الوقائع التي حدثت كخرق للعادة والكرامة، واعترف بها المتأخرون، وقالوا: لا يمكن إنكارها لكثرة ما عرفت ونقلت، يقول العلامة بدر الدين العيني، صاحب (عمدة القاري شرح صحيح البخاري) في (تقريظ الرد الوافر):

«وهذا الإمام مع جلالة قدره في العلوم نقلت عنه على لسان جم غفير من الناس كرامات ظهرت منه بلاالتباس»[1].

---

(١) الرد الوافر، ص٨٩.

والفراسة الصادقة شُعبة من هذه الكرامات التي يكرم الله بها عباده المتقين وكبار المؤمنين، ويُحكى لهذه الفراسة حكايات عجيبة، ذكر الحافظ ابن القيِّم[1] طائفة منها في كتابه (مدارج السالكين) وغيره من مؤلفاته الأخرى، يقول في (مدارج السالكين):

«ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام أموراً عجيبة، وما لم نشاهده منها أعظم وأعظم، ووقائع فراسته تستدعي سِفراً ضخماً»[2].

* * *

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٥٠.

(٢) فصل مأخوذ من الجزء الثاني لكتاب (تاريخ الدعوة والعزيمة) الخاص بسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، للمؤلف، نقله إلى العربية الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي، ونشر باسم (رجال الفكر والدعوة في الإسلام): ٢/ ١٥٥ ـ ١٧٠.

دور الصّوفية الإصلاحي في الهند وتأثيرهم في المجتمع

صلة الجمهور بالصوفية والتصوف، وإقبالهم عليه:

إن العهد الإسلامي في الهند بدأ بهؤلاء الصوفية، وخاصة الشيخ معين الدين الأجميري (م٦٢٧هـ)، الذي أسس الطريقة الجشتية في هذه البلاد على دعائم قوية لجهاده وإخلاصه، وأقبل عليهم الناس من جميع الطبقات والفئات، يتنافسون في حبهم وصلتهم بهؤلاء المرشدين رجال الله والدعاة إليه بإخلاص وصدق، وأمانة ونزاهة، وامتدت في طول البلاد وعرضها شبكة من المراكز الروحية حتى لم يبقَ بلد أو قرية ذات شأن إلا وفيها مركز روحي أو عدة مراكز[١].

---

(١) انطلقت بعد وصول الشيخ معين الدين الجشتي إلى الهند وقيامه بالدعوة موجة عارمة من دخول أهل الهند الوثنيين في الإسلام، وقد عدَّهم بعض المؤرخين بمئات ألاف، ولم=

إن الصلة القلبية والروحية وموجة الحب والإجلال التي كانت تغمر الناس نحو هؤلاء الشيوخ والصوفية تتجلَّى بالأحداث التالية التي نسردها في هذا المكان من غير أن نراعي فيها الترتيب التاريخي:

= يكن الزمن زمن الإحصاءات والتسجيلات، فلا يمكن الجزم بعدد خاص، ومبلغ خاص.

الإمام الشيخ أحمد بن عبد الأحد العمري السّرهندي

كان الإمام الربَّاني الشيخ أحمد بن عبد الأحد العمري السرهندي (٩٧١ ـ ١٠٣٤هـ) شديد الإنكار على البدع والخرافات، التي أصبحت تشريعاً إزاء تشريع، وتفنيدها ـ وعدم الاعتراف بوجود (البدعة الحسنة) ـ وتثبيت أقدام الإسلام المتزلزلة في الهند، وإزالة آثار الكفر ومعالم الضلال، التي خلَّفها عهد (أكبر) المظلم[١]، والمحاولة الجادة الحكيمة الناجحة لثورة دينية تجديدية وتغيير جَذْري عظيم، كان من نتاجهما السلطان (محيي الدين أورنك زيب عالمكير) سلطان الهند، وصاحب الأمر والنهي فيها؛ عملياً وتشريعياً وإدارياً[٢].

(١) ليرجع في معرفة الخطر الذي أحاط بالإسلام والمسلمين في عهد (أكبر) الملك المغولي إلى الجزء الثالث من (رجال الفكر والدعوة في الإسلام).

(٢) راجع للتفصيل (الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام)=

إنه حقّق الفرق بين البدعة والسنّة، وأقيسة المجتهدين، واستحسانات المتأخرين، والتعارف عن القرون المشهود لها بالخير، وما أحدثه الناس في القرون المتأخرة، وتعارفوه فيما بينهم، فردَّ بذلك مسائل استحسنها المتأخرون من فقهاء مذهبه، ومنها أنه كان يأمر بما يراه معروفاً وينهى عن ضده، ولا يخشى في الله لومة لائم، ولا يخاف من ذي سطوة في سلطانه، فكان ينكر على الأمراء، ويرشدهم إلى مراشد دينهم، وينفِّرهم من صحبة الروافض ومن شاكلهم من أعداء الدين، ويبذل لهم نصحه، فنفع الله كثيراً منهم بذلك، وصلحت بصلاحهم الرعية، فسدَّ الله ثلمة ظاهر الدين كما رقع به خرق باطنه[1].

يدلُّ على مدى غَيْرته على العقائد الإسلامية، وحميته الدينية، ما كتبه إلى عالم معاصر، حكى في رسالته من كلام الشيخ عبد الكبير اليمني، ما يخالف العقيدة الإسلامية،

= للعلاّمة السيد عبد الحي الحسني ـ رحمه الله ـ الجزء السادس؛ و(رجال الفكر والدعوة في الإسلام) الجزء الثالث للكاتب.

(١) راجع للتفصيل (الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام).

وهو «إن الله يعلم الغيب ومحيط علمه بالكليات دون الجزئيات»، قال في الرد عليه:

« يا أخي إنني لا أستطيع سماع مثل هذه الكلمات، إن عرقي العمري الفاروقي ينبض ويتحرك، كان قائلها عبد الكبير اليمني أو محيي الدين ابن عربي، إن أمامنا ورائدنا هو **محمد العربي** لا محيي الدين ابن عربي، إن الفتوحات المدنية أغنتنا عن (الفتوحات المكية)، إن لنا شأناً مع النصوص لا (الفصوص)»[1].

مأثرة الشيخ أحمد السرهندي، ومحافظته على الإسلام في الهند:

أما في الهند فقد اتّجهت حكومة (أكبر) إلى اللادينية والإلحاد اتجاهاً سافراً، وأراد (أكبر) ـ وكان من أكبر الملوك الذين عرفتهم الهند وأقواهم ـ أن يطمس على معالم

---

(١) هي رسالة إلى الشيخ ملاَّ حسن الكشميري رقم (١٠)، المجلد الأول من رسائل الإمام السرهندي، والمراد بالفتوحات المكية كتاب للشيخ محيي الدين ابن عربي المسمى بـ(الفتوحات المكية) والمراد بالفصوص كتاب الشيخ محيي الدين ابن عربي المسمَّى (بفصوص الحِكَم).

الإسلام وملامحه الواضحة وميزاته البارزة، بجميع ما عنده من وسائل ومواهب وطاقات، وقد اجتمع عنده جمعٌ من الأذكياء وذوي الكفاءات النادرة يعينونه على هذا الباطل، ولم يكن هناك ضعف، أو هرم في الدولة يشير إلى زوالها، أو يدل على ثورة يتأجّج أوارها، وكان العلم والمنطق، والقياس الظاهر، لم يكن يصدق أنه سيقع هناك تغيير سارّ أو تحول بارز في الحكومة والشعب.

هنالك قيّض الله أحد عباده للإصلاح والتجديد، فحمل راية الثورة بمفرده، وبدأ في ثورة داخلية بقوة إيمانه ويقينه، وعزمه وتوكله، وروحانيته وإخلاصه، حتى أصبح كلُّ وارثٍ للحكم المغولي أحسن من سابقه، ثم تربّع أخيراً على هذا العرش السلطان محيي الدين (أورنك زيب عالمكير) الملك الفاضل الصالح المسلم الغيور الذي يندر نظيره في تاريخ الحكومات الإسلامية، وكان رائد هذه الثورة المباركة، إمام الطريقة المجددية الشيخ أحمد السرهندي[1].

نجاح الإمام السرهندي في مهمته وأهدافه:

وهكذا استطاع رجل وحيد بقوة إرادته وصدق

---

(١) اقرأ رسالة المؤلف (الدعوة الإسلامية وتطوراتها في الهند)

عزيمته، وإيمانه القوي ومعرفته بقيمة نفسه، واحتفاظه بقوته، وإبائه من أن ينفقها فيما لم تخلق له وما لا يعود على الإسلام بطائل، وتجرده للدعوة، وتركيز جهوده كلها على إنهاض الإسلام من كبوته في هذه الديار، لقد استطاع هذا الرجل بهذا التوفيق، أن يُحْدِث انقلاباً في الحكومة واتجاهها، واستطاع أن يقضي على عقيدة (وحدة الوجود) التي تغلغلت في أحشاء التصوف، والأدب والشعر، وعلى فكرة استقلال الطرق عن الشريعة، وعلى كثير من العقائد والأفكار والعادات التي تسربت إلى المسلمين من الجاهليات المختلفة.

كان السيد (آدم البنوري) خليفة الشيخ المجدِّد الأكبر (دفين البقيع م١٠٥٣هـ) أكبر خلفائه، كان يأكل على مائدته كل يوم ألف رجل، ويمشي في ركابه ألوف من الرجال ومئات من العلماء، ولما دخل السيد في لاهور (عام ١٠٥٣هـ) كان في معيته عشرة آلاف من الأشراف والمشايخ وغيرهم حتى توجّس (شاه جهان) ملك الهند منه خيفة، فأرسل إليه بمبلغ من المال، ثم قال له: قد فرض الله عليك الحج فعليك بالحجاز، فعرف إيعاز الملك، وسافر إلى الحرمين حيث مات.

والشيخ محمد معصوم (م١٠٧٩هـ) ابن الشيخ الكبير أحمد السرهندي قد بايعه وتاب على يده تسعمئة ألف من الرجال، واستخلف في دعاء الخلق إلى الله وإرشاد الناس وتربيتهم الدينية سبعة آلاف من الرجال[1].

وكتب سيد أحمد خان مؤسس الجامعة الإسلامية في عليكرة في كتابه (آثار الصناديد) بذكر الشيخ غلام علي الدهلوي المجدِّدي، فقال:

«لا يقل عدد المقيمين في هذه الزاوية عن خمسمئة رجل تقوم الزاوية بنفقاتهم».

* * *

---

(١) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، الجزء الخامس، للشيخ عبد الحي الحسني.

الإمام وليّ الله الدّهلوي رحمه الله

وقام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (١١١٤ ـ ١١٧٦هـ) المشهور بالشيخ ولي الله، بعملية التجديد والإصلاح، وهو أحد حكماء الإسلام ونوابغه وكبار المفكِّرين الإسلاميين، من طراز الإمام الغزالي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وقد لاحظ خمس نقط في حياة الشعب الهندي.

خطته في الإصلاح:

١ ـ إن كثيراً من المسلمين قصَّروا في فَهْمِ التوحيد الإسلامي، وأحاطت بعقيدتهم غيوم من الجهالات والظنون الفاسدة والعادات الجاهلية، فلا بدَّ من إبراز هذا (التوحيد) في نقائه ووضوحه، وشرح ما كان عليه أهل الجاهلية من اعتقاد في الله حتى يظهر الفرق بين عقيدتهم وبين ما جاء به الإسلام.

٢ ـ يجب أن يكون للشعب اتصال مباشر بالكتاب والسنّة، وقد حال العلماء بينه وبين دراسة القرآن وفهمه، بعلَّة تعذُّر فهمه للعامة، وخوف إغلال سلطتهم الروحية، وسيادتهم العلمية، فلم يترجموا ألفاظ القرآن إلى لغة البلاد، ولم ينشروا كتب الحديث، فلا بدَّ إذن من نقل معاني القرآن وأحكامه إلى لغة البلاد، والإقبال على كتب السنّة وحديث رسول الله ﷺ.

٣ ـ ثقافة علماء الهند ضعيفة ضئيلة في العلوم الدينية، وبضاعتهم مزجاة في الحديث خصوصاً، فلا بدَّ من نشر علم الحديث، فَدَرَسَ (الصحاح) و(المؤطا)، وأقبل على دراسة هذه الكتب حتى أصبحت للهند مكانة مرموقة في العالم الإسلامي في خدمة الحديث، بفضل جهود هذا البيت العظيم ومؤسسه.

٤ ـ لاحظ أن العالَم الإسلامي سوف يستقبل عصراً عقلياً، وثورة فكرية، فلا بدَّ من شرح نظام الخلافة في الإسلام، وأساليب الإسلام وأسسه في تنظيم الحياة والمجتمع، فألَّف كُتباً لا تزال فريدة في مكتبة الإسلام العامرة: (حجة الله البالغة)، و(إزالة الخفاء في خلافة الخلفاء).

٥ ـ لاحظ أنه لا أمل في نهضة الأسرة الملكية الهندية، وتجديد شباب الدولة التيمورية، لأنه ـ كما قال ابن خلدون: «إذا نزل الهرم بدولة لا يرتفع» فلا فائدة في بذل القوة لإصلاحها وتقويتها، ولا بدَّ من إعداد جماعة تحدث انقلاباً إسلامياً، وتؤسس دولة إسلامية جديدة على أساس ديني علمي جديد.

نجاحه في عمله:

قام الشيخ وليُّ الله وأصحابه بمهمة هذا التجديد الإسلامي خير قيام، فنشروا العلم الصحيح، وأذاعوا مصادر الدين الأولى، وألَّفوا كُتباً دسمة قوية مبتكرة، تمهِّد العقول والنفوس لإحداث انقلاب إسلامي وإنشاء دولة إسلامية، وخرَّج تلاميذ ورجالٌ يقومون بهذه المهمة. وقام بعده نجله الأكبر سراج الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوي (م١٢٣٩هـ)، فَدَرَسَ وألَّف، وخرَّج وخلَّف التلاميذ الكبار والعلماء الفحول، نشروا علم الحديث، وشمَّروا عن ساعد الجد في نصر الدين، ومحاربة البدع، والدعوة إلى الكتاب والسنة، وتزكية النفوس، حتى نفقت سوق الحديث وقامت دولة العلم، واستعدت النفوس للنصر المؤزر للدين.

لم يقتصر الإمام الدهلوي على هذه الخطابات الخاصة لهذه الطبقات الخاصة من الناس، بل شدَّد النكير على تلك الطقوس والتقاليد الهندوكية، والبدع والشعائر غير الإسلامية التي تسرَّبت إلى المجتمع المسلم وشاعت فيه بسبب الاختلاط الطويل بالهنادك، ومواطنتهم بعدة قرون، وعدم الاهتمام بالسنَّة المشرَّفة والحديث الشريف، وغفلة العلماء وتقصيرهم، وعدم شعور الحكومة المسلمة بمسؤوليتها، وفقدان الحسبة الدينية، فالتزم بها المسلمون التزاماً شديداً.

شنَّع الشيخ عبد العزيز الدهلوي على تلك المعتقدات الباطلة والأوهام والخرافات الجاهلية، وتقليد غير المسلمين وأتباعهم وعابهم عليه، وقد كان عامة العلماء المشتغلين بالعلوم العقلية والفنون الحكمية لا يعيرون لهذه العادات والتقاليد الجاهلية بالاً ويرونها هينة خفيفة، أو يتغاضون عنها فراراً من الوقوع في المشاكل ومعارضة الجماهير.

* * *

الإمام السّيد أحمد الشّهيد رحمه الله

وفي الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري، قام السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٠١ ـ ١٢٤٦هـ) ـ الذي تخرَّج على الشيخ عبد العزيز ـ ومعه الشيخ محمد إسماعيل بن عبد الغني ابن الشيخ ولي الله الدهلوي، فدعا الناس إلى الدين الخالص والتوحيد واتِّباع السنة، وحارب الشرك والجاهلية والبدع محاربة سافرة شديدة، وبثَّ في الشعب روحاً دينية قوية، لم تُعهد من قرون متطاولة، ودعا الناس إلى الإيمان والإحسان والتقوى، والجهاد في سبيل الله، وقام بجولات واسعة في الهند، تاب في خلالها ألوف من المسيئين، وأقفرت الحانات، وغصَّت المساجد، وكسدت سوق البدع، والتفَّ حوله المخلصون، والعلماء الربَّانيون، وخرج للحج عام ١٢٣٦هـ ومعه أكثر من سبعمئة رجل، وتشرَّف بالبَيْعة والتوبة مئات ألوف من المسلمين في هذا السفر.

وكان الناس يقصدونه من كل صِقْع ويدخلون في الخير أفواجاً، حتى لم يحرم ذلك المرضى في المستشفى، وكان الناس يتساقطون عليه كالفراش، وأسلم عدد كبير من الكفار، وكان من تأثير مواعظه ودخول الناس في الدين وانقيادهم للشرع أن وقفت تجارة الخمر في (كلكته)ـ وهي كبرى مدن الهند ومركز الإنكليز ـ وأقفرت الحانات ـ واعتذر الخمارون عن دفع ضرائب الحكومة لكساد السوق، وتعطل تجارة الخمر.

وتدل الإحصاءات الدقيقة الأمينة للمنتفعين بهذه الدعوة، والتيار الديني القوي العاصف، على قوة تأثير الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ـ رحمه الله ـ واتّساع نطاق من انتفع به، وتغيَّرت حياته، عقائدياً وعملياً، وخُلقياً، فقد تحقق أن من بايع وتاب على يده، يبلغ عددهم إلى ثلاثة ملايين شخصاً، ومن أسلم على يده من الوثنيين وغير المسلمين، يبلغ عددهم إلى ثلاثين ألفاً (٣٠٠٠٠)[1].

---

(١) في (أردو) كتاب ضخم في سيرته، في مجلدين يبلغ عدد صفحاتهما إلى (١١٠٠) صفحات، لصاحب هذه الرسالة ونقل إلى الإنكليزية كذلك، وللكاتب الكبير الأستاذ غلام=

الشيخ إسماعيل الشهيد رحمه الله:

أما الشيخ إسماعيل الشهيد، فقال الشيخ محسن ابن يحيى الترهتي في (اليانع الجني):

«إنه كان أشدّهم في دين الله، وأحفظهم للسنّة، يغضب لها، ويندب إليها، ويشنِّع على البدع وأهلها».

وقال العلاَّمة صدِّيق بن حسن القنوجي (م١٣٠٧هـ) في (الحطَّة بذكر الصحاح الستة) في ذكر الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي:

إنَّ ابن ابنه المولوي محمد إسماعيل الشهيد رحمه الله اقتفى أثر جدِّه في قوله وفعله جميعاً، وتمَّم ما ابتدأه جدُّه، وأدَّى ما كان عليه، وبقي ما كان له، والله تعالى مجازيه على صوالح الأعمال، وقواطع الأقوال، وصحاح الأحوال، ولم يكن ليخترعَ طريقاً جديداً في الإسلام، كما يزعم الجهّال، وقد قال الله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ

= رسول مهر رئيس تحرير صحيفة (انقلاب) أربعة مجلدات ضخام في سيرته وكفاحه.

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وهو رحمه الله تعالى أحيا كثيراً من السنن المماتات، وأمات عظيماً من الأشراك والمحدثات، حتى نال درجة الشهادة العليا، وفاز من بين أقرانه بالقدح المُعَلَّى، وبلغ منتهى أمله، وأقصى أجله.

أما كتاب (تقوية الإيمان)(١) فإنه كتاب أصبح شعاراً وعلماً للدعوة إلى التوحيد، وبيان الحق الصريح، وقد نفع الله به خلائق في شبه القارة الهندية لا يحصيهم إلا مَن أحصى رمل عالج وحصى البطحاء، وقد بلغ عددهم إلى ملايين من غير شك.

وقد صدر هذا الكتاب عن قلب جريح يتقطع بمشاهدة ما كان عليه المسلمون في ذلك اليوم من بعدٍ من التعاليم الإسلامية، وخضوع للوثنية الهندية، وتمسك بالعادات الجاهلية، وقد زاد في تأثيره وقبوله، دموع عين باكية على

---

(١) وقد نُقل إلى العربية باسم (رسالة التوحيد) وفيه تعليقات بقلم صاحب هذه الرسالة، وقد قرأه أحد كبار علماء السعودية، فقال: هذا منجنيق التوحيد.

الإسلام، ودم زكي أريق في سبيل إحياء هذا الدين، وإدالته من الجاهلية، وتأسيس حكومة شرعية تقوم على منهاج الكتاب والسنّة، ويكون الدين كله لله.

وقد قرن ـ رحمه الله ـ الدعاء بالدعوة، والجهد بالجهاد، والشهادة للحق بالشهادة في الحق، وذلك لباب التوحيد، وغاية الإخلاص، وكمال الصدق، وتمام الوفاء، وصدق الله العظيم:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فكان لكتابه من القبول والتأثير، والذيوع والانتشار، ما لا يكون إلا لكتابات كبار المخلِصين، والعلماء العاملين، والدعاة المجددين.

وسِرُّ قوة الكتاب صراحته، وتشخيصه للأدواء، ومظاهر الشرك، ومواضع الانزلاق، وأنه يضرب على الوتر الحساس، ويصيب ضعف الاعتقاد، وما فُتن به المسلمون في العهد الأخير من الغلو والتقديس والتعظيم، وتقليد الأمم الوثنية، والعادات الجاهلية، في صميمه.

وقد اعتاد الناس أن يفزعوا للمواعظ والخطب التي تلقى على المنابر، أو البحوث العلمية التي تتناول موضوع التوحيد والشرك بصفة إجمالية عامة، إذا لم تتعرض للأمراض التي يعانونها، والأخطاء التي يرتكبونها، والعادات التي لا يمكنهم الفِطام عنها، وللأشخاص والأماكن والشعائر التي يَغْلون فيها، فيتجاهلون كل ذلك، ويتظاهرون بأن الواعظ أو الكاتب لا يعنيهم، وإنما يعني المشركين القدامى، وعُبَّاد الأوثان في الجاهلية الأولى، أما إذا تعرَّض هذا الكاتب والواعظ لواقع حياتهم، ووضع يده على عللهم وأسقامهم، وحدَّد مواضع فتنتهم، لم يسعهم أن يتغافلوا عنه، فأعلنوا الحرب عليه، ونادوا بعدائه، وهذا شأن الداعي المخلص الذي ملكته الفكرة، واستحوذ عليه الشعور، وتذوَّق القرآن ومنهج الأنبياء في دعوتهم تذوقاً حقيقياً.

* * *

سهم الشّيوخ والعلماء الرّبّانيّين في الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله وفي مقاومة الاحتلال الغربي

ولما هجم (التتار)[1] الأوروبيون، أو الغزاة الصليبيون على العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر، هب لمقاومتهم المسلمون من كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي، وكان فيهم عدد كبير من شيوخ الطريقة ورجال التصوف، نشأت فيهم ـ من أجل ترويض النفس والسلوك على طريق النبوّة ـ حميَّة الإسلام ومَقْت الكفر والاستهانة بالدنيا والإكبار للشهادة، والإقبال عليها أكثر من غيرهم.

---

(١) هم المحتلُّون الغربيون الذين يسمُّون أنفسهم (مستعمرين) وقد زحفوا على العالم الإسلامي، في القرن الثالث عشر الهجري، كما زحفت التتار عليه في القرن السابع الهجري.

الأمير عبد القادر الجزائري، عالِم صوفي، وقائد حربي:

وقد رفع راية الجهاد في الجزائر ضد الفرنسيين، وأطلق الشرارة الأولى فيها، الأمير عبد القادر الجزائري، ولم يهدأ له بال من عام ١٨٣٢م إلى ١٨٣٧م حتى أقضَّ مضاجع الفرنسيين، وقد أثنى مؤرخو الغرب على شجاعته وعدله ورفقه وعلمه وفضله، وكان هذا المجاهد شيخ طريقة، وصوفياً، ذَوْقاً وعملاً، يتحدث عنه الأمير شكيب أرسلان، فيقول:

«وكان المرحوم الأمير عبد القادر متضلِّعاً من العلم والأدب، سامي الفكر، راسخ القدم في التصوف، لا يكتفي به نظراً حتى يمارسه عملاً، ولا يحن إليه شوقاً، حتى يعرفه ذوقاً، وله في التصوّف كتاب، سمَّاه (المواقف) فهو في هذا المشرب من الأفراد الأفذاذ، ربما لا يوجد نظيره في المتأخرين»[١].

---

(١) حاضر العالم الإسلامي: ٢/ ١٧٣.

ويذكر كيف كان يقضي وقته؟ وكيف كانت أيامه في دمشق؟ فيقول:

«وكان كل يوم يقوم الفجر ويصلّي الصبح في مسجد قريب من داره في محلة العمارة، لا يتخلّف عن ذلك إلا لمرض، وكان يتهجد الليل، ويمارس في رمضان الرياضة على طريقة الصوفية، ومازال مثالاً للبر والتقوى والأخلاق الفاضلة، إلى أن توفي رحمه الله سنة ١٨٨٣م»[1].

شيوخ الطريقة النقشبندية في ساحة الجهاد والإصلاح

وفي عام ١٨١٣م، لما هجم الروس على طاغستان[2] واستولوا عليها، لم يقم في وجههم إلا هؤلاء الشيوخ النقشبنديون، وحملوا راية الجهاد، وطالبوا بأن يُقْضى في قضايا المسلمين بالشرع الإسلامي، ويكونوا أحراراً في تطبيق الشريعة في معاملاتهم.

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ١٧٢.

(٢) طاغستان تقع على الساحل الغربي من البحر الخزر، أكثر أهلها مسلمون، إذا ضمت إليها القفقاز الشمالي يتراوح عدد المسلمين بين مليونين وثلاثة ملايين نسمة.

يقول المرحوم الأمير شكيب أرسلان:

«وتولّى كبر الثورة علماؤهم، وشيوخ الطريقة النقشبندية المنتشرة هناك، وكأنهم سبقوا سائر المسلمين إلى معرفة كون ضررهم هو من أمرائهم، الذين أكثرهم يبيعون حقوق الأمة بلقب ملك أو أمير، وتبوء كرسي وسرير، ورَفْع علم كاذب، ولذة فارغة بإعطاء أوسمة ومراتب، فثاروا منذ ذلك الوقت على الأمراء، وعلى روسية حاميتهم، وطلبوا أن تكون المعاملات وفقاً لأصول الشريعة، لا للعادات القديمة الباقية من جاهلية أولئك الأقوام، وكان زعيم تلك الحركة (غازي محمد) الذي يلقبه الروس بقاضي مُلاَّ، وكان من العلماء المتبحِّرين في العلوم العربية، وله تأليف في وجوب نبذ تلك العادات القديمة المخالفة للشرع اسمه: (إقامة البرهان على ارتداد عرفاء طاغستان)».

وفي عام ١٨٣٢م استشهد الغازي محمد، وحمل لواءه خليفته (حمزة بك)، وجاء بعده الشيخ (شامل)، وتسلَّم زمام القيادة، وكان كما يقول المرحوم الأمير شكيب: «صورة للأمير عبد القادر الجزائري، وكان قد انتقل من المشيخة إلى الإمارة».

واستمرَّ الشيخ شامل في جهاد ضدَّ روسية نحو ٣٥ سنة، وانتصر عليهم في عدة معارك انتصاراً باهراً، وكان الروس، قد أخذهم الرعب بشجاعته وشهامته، وانسحبوا له عن بلادهم باستثناء بعض الولايات، وقد فتح الشيخ جميع حصونهم وقلاعهم في عام ١٨٤٣ و١٨٤٤م ونال غنيمة كبيرة من الأسلحة والذخيرة، وهنالك ركزت الحكومة الروسية كل عنايتها على طاغستان، وزحفت إليها بخَيْلها ورَجِلها، وأنشد الشعراء قصائد تثير النخوة، وسيقت إليها العساكر إثر العساكر، ولكن الشيخ شامل استمر في المقاومة والجهاد عشر سنوات أخرى، ولم يضع سلاحه إلا في عام ١٨٥٩م.

السنوسية، وجهادها الأكبر في أفريقية:

وأروع مثال لهذا الجمع بين التصوف والجهاد سيدي أحمد الشريف السنوسي، ولقد قدَّر الإيطاليون أنهم سيفتحون برقة وطرابلس في خمسة عشر يوماً، ولكن القواد الإنكليز الذين مارسوا الحرب في المستعمرات، وفي الصحارى، عارضوا هذا الرأي، وقالوا إنه يدل على عدم تجربتهم في هذا المجال، فقد يمكن أن تستغرق هذه الحرب

ثـلاثة أشـهر، فماذا حدث؟، لقد استمر القتال إلى ١٣ سنة كاملـة، ولم يسـتطع الإيطاليون في هذه المدة الطويلـة أن يخمدوا نـار الثورة فيها، والفضل في ذلـك كله يرجع إلى الفقراء السنوسين، وإمامهم وشـيخ طريقتهم سـيدي أحمد الشريف.

لقد كتب الأمير شكيب أن بطولة السنوسين دلَّت على أن الطريقـة السنوسـية، هي عبـارة عن حكومـة بأسرها، بل وهنا عدة حكومات لا تملك من الوسائل ما يملكها رجال هذه الطريقة.

سيدي أحمد الشريف السنوسي وشخصيته الجامعة:

ويصف الأمير سيدي أحمد الشريف، فيقول: «وقد لحظتُ منـه صبراً، قـلَّ أن يـوجد في غيـره من الرجال، وعَزْمـاً شـديداً، تلوح سـيماؤه على وجهه، فبينما هو في تقواه من الأبدال، إذا هو في شجاعته من الأبطال».

السـيد المهدي السنوسـي وعنـايته الفائقـة بالفتـوة والفروسية:

إن الصورة الرائعة التي عرضها الأمير شكيب للزاوية

السنوسية في صحراء أفريقية الكبرى، صورة جذّابة مثيرة، فيها دروس وعبر، وفيها مسحة من جمال ساحر أخّاذ، إن هذه الزاويةكانت تقع في(واحة الكفرة)، وكان يديرها عم سيدي أحمد الشريف، وشيخه السيد المهدي، وكانت أكبر مركز روحي ومخيَّم حربي ـ بلا نزاع ـ في أفريقية.

يقول الأمير شكيب:

«لقد كان السيد المهدي يَهْدي هَدْي الصحابة والتابعين، لا يقتنع بالعبادة دون العمل، ويعلِّم أن أحكام القرآن محتاجة إلى السلطان، فكان يحثُّ إخوانه ومريديه دائماً على الفروسية، والرماية، ويبثّ فيهم روح الأنفة والنشاط، ويحملهم على الطِّراد والجلاد، ويعظِّم في أعينهم فضيلة الجهاد، وقد أثمر غراس وعظه في مواقع كثيرة، لا سيما في الحرب الطرابلسية التي أثبت بها السنوسية أن لديهم قوة مادية تضارع قوة الدول الكبرى، وتصارع أعظمها جبروتاً وكبراً، وليست الحرب الطرابلسية وحدها هي التي كانت مظهر شجاعة السنوسيين، بل سبقت لهم حروب مع الفرنسيس في مملكة (كانم) ومملكة (واداي) من السودان، استمرَّت من سنة ١٣١٩ إلى سنة ١٣٣٢ هجرية.

وحدَّثني السيد أحمد الشريف أن عمَّه المهدي، كان عنده خمسون بندقية خاصة به، وكان يتعهدها بالمسح والتنظيف بيده، لا يرضى أن يمسحها له أحد من أتباعه المعدودين بالمئات، قصداً وعمداً، ليقتدي به الناس، ويحتفلوا بأمر الجهاد وعدته وعتاده.

وكان نهار الجمعة يوماً خاصاً بالتمرينات الحربية من طراد ورماية، وما أشبه ذلك، فكان مجلس السيد في مرقب عال، والفرسان تنقسم صفين، ويبدأ الطراد، فلا ينتهي إلا في آخر النهار، وأحياناً يضعون هدفاً، ويأخذون بالرماية، حتى كنت ترى طلبة العلم والمريدين أكثرهم فرساناً ورماة، لكثرة ما كان يأخذهم بهذا المران، وكان يجيز الذين يسبقون في الطراد أو يقرطسون في الرمي بجوائز ذات قيمة، ترغيباً لهم في فضائل الحرب.

كما أنه كان يوم الخميس من كل أسبوع مخصصاً عندهم للشغل بالأيدي، فيتركون في ذلك اليوم الدروس كلها، ويشتغلون بأنواع المهن من بناء، ونجارة، وحدادة، ونساجة، وصحافة، وغير ذلك، لا تجد منهم ذلك اليوم إلا عاملاً بيده، والسيد المهدي نفسه يعمل بيده لا يفتر، حتى ينبّه فيهم روح النشاط للعمل».

نشاط السنوسية في الأعمال البنائية والأمور النافعة:

وكان السيد المهدي، وأبوه من قبله، يهتمان جد الاهتمام بالزراعة، والغرس، تستدل على ذلك من الزوايا التي شادوها، والجنان التي نسقوها بجوارها، فلا تجد زاوية إلا لها بستان أو بستانان، وكانوا يستجلبون أصناف الأشجار الغريبة إلى بلادهم من أقاصي البلدان، وقد أدخلوا في (الكَفْرة)، و(جغبوب)، زراعات وأغراساً لم يكن لأحد هناك عهد بها، وكان بعض الطلبة يلتمسون من السيد محمد السنوسي أن يعلمهم الكيمياء، فيقول لهم: «الكيمياء تحت سكة المحراث».

وأحياناً يقول لهم: الكيمياء هي كدّ اليمين وعرق الجبين، وكان يشوِّق الطلبة والمريدين إلى القيام على الحِرَف والصناعات، ويقول لهم جُمَلاً تطيّب خواطرهم، وتزيد رغبتهم في حرفهم، حتى لا يزدروا بها أو يظنوا أن طبقتهم هي أدنى من طبقة العلماء، فكان يقول لهم: يكفيكم من الدين حُسن النيّة، والقيام بالفرائض الشرعية، وليس غيركم بأفضل منكم، وأحياناً يدمج نفسه بين أهل الحرف، ويقول لهم، وهو يشتغل معهم:

«يظن أهل الأوريقات والسبيحات أنهم يسبقوننا عند الله، لا، والله، ما يسبقوننا»[1].

الشيخ حسن البنا، ونصيب التربية الروحية في تكوينه، وفي تكوين حركته الكبرى:

أما الحركات الإسلامية المعاصرة، فقد برزت فيها حركة الإخوان، وهي أعظمها تنظيماً وقوة، وهي الحركة الوحيدة التي حملت راية الإصلاح والدعوة، ودَعَت إلى العودة للإسلام من جديد في العالم العربي، وأكبر ميزاتها، أنها تـرتبط ارتباطاً وثيقـاً بالحياة، ولها تـأثير عميق بـارز ملموس على الحياة العامة في الأقطار العربية كلها.

وكانت شخصية مؤسسها وقائدها الأول شخصية قوية ساحرة تجمع بين عدة جـوانب، إنـه كـان عملاً متواصلاً وسعياً دائباً، وهمة لا يتخلَّلها فتور، وأملاً لا يرتقي إليه يأس، وجندياً ساهراً على الثغر، لا يناله التعب والعناء، وكان وراء كل هذه الخصائص والسمات عامل قويٌّ لا يُستهان به، وهي تربيته الروحية، وسلوكه ورياضته، إنه كان في أول أمره ـ

---

(١) حاضر العالم الإسلامي: ٢/ ١٦٣ ـ ١٦٤.

كما صرَّح بنفسه ـ في الطريقة الحصافية الشاذلية، وكان قد مارس أشغالها وأذكارها، وداوم عليها مدة[1]، وقد حدثني كبار رجاله وخواص أصحابه، أنه بقي متمسكاً بهذه الأشغال والأوراد إلى آخر عهده، وفي زحمة أعماله.

وقد تحدَّث عن حركته في المؤتمر الخامس المنعقد في ١٣٥٧هـ، وبيَّن خصائصها، فقال: «دعوة سَلَفية وطريقة سنية، وحقيقة صوفية، وهيئة سياسية، وجماعة رياضية، ورابطة علمية ثقافية، وشركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية»[2]

ونختم هذا الفصل بالحديث عن جهاد الإمام السيد أحمد الشهيد (م١٢٤٦هـ) فهو مسك الختام.

* * *

---

(١) مذكرات الدعوة والداعية بقلم الإمام الشهيد حسن البنا، انظر (الطريقة الحصافية).

(٢) رسالة المؤتمر الخامس، ص١٨ ـ ١٩.

السيّد الإمام أحمد الشّهيد
وأتباعه وخلفاؤه الأبطال المغاوير

أما في الهند، فترى هناك مزجاً غريباً، واجتماعاً نادراً بين التصوُّف والجهاد، يقلُّ نظيره في العالم الإسلامي، أما السيد أحمد الشهيد وحركته ورجاله[1] فحدِّث عن البحر ولا حَرَج، فقد بلغ جمعه العجيب بين هذا وذاك، وتفوُّقه في كلا الجانبين إلى حدِّ التواتر، وأصبح من المسلَّمات في هذه البلاد، إن ذلك الشوق إلى الجهاد والحنين إلى الشهادة، والحُبّ في الله، والبغض في الله، الذي تحلَّى به أصحاب السيد أحمد رحمه الله تذكرنا بالقرون الأولى.

وإذا اطَّلعنا على تاريخهم، علمنا أنه كان نفحة من بقايا النفحات في القرن الأول، هبَّت في القرن الثالث عشر، فأحيت الأرض بعد موتها، وبرهنت على أن الإيمان والتوحيد

---

(١) ليرجع إلى كتاب (إذا هبَّت ريح الإيمان) للمؤلف.

والصلة الصحيحة بالله، والتربية والسلوك على منهاج النبوة، لا يزال يصنع العجائب، وأن التضحية والإيثار والفداء من غير روحانية صافية مشرقة، وعاطفة إصلاح قوية راسخة، حلم لا يتحقق وغاية لا تنال.

إنه دعا إلى الدين الخالص، وأشعل في القلوب شعلة الإيمان، والحماسة الإسلامية، والجهاد في سبيل الله، ونظَّم جماعة كبيرة، وأحسن تربيتها الدينية والحربية، وخرج معها مهاجراً في سبيل الله (في ٧/ من جمادى الآخرة سنة ١٢٤١هـ) من طريق بلوجستان وأفغانستان، إلى حدود الهند الشمالية، ليتخذها مركزاً لدعوته، وليتقدم منها إلى الهند لإجلاء الإنكليز، وتأسيس دولة إسلامية على منهاج الكتاب السنة، وأثار الغَيْرة الإسلامية في نفوس المسلمين، وأولي الأمر وقادة الرأي، وأنذرهم بالخطر المحدق بالوجود الإسلامي، ونبّههم على نوايا (الأخطبوط) الإنكليزي، ومخططاته التوسعية، وراسل أمراء المسلمين وغير المسلمين في الهند، وملوك البلاد الإسلامية المستقلة ككابل، وهراة، وبخارى... وغيرها، وأرسل إليهم رسله ورسائله الرقيقة المرقِّقة، الدافقة بالقوة والحماس الإسلامي، وفراسة المؤمن الألمعي، وعلوِّ همة القائد العصامي، والإمام الديني الذي

هيأه الله لهذا الأمر العظيم.

وسمت همته، وبَعُد نظره، حتى فاق في ذلك كبار السياسيين في عصره وبعد عصره، وما ذلك إلا لإحياء ما مات من السنن، واندرس من معالم الإسلام، ولإدالة الإسلام من الجاهلية، والسنّة من البدعة، وإجراء الأحكام الشرعية على من دان بالإسلام، ونطق بالشهادتين، وليدخلوا في السلم كافة، لا يشوبه غرض سياسي، أو طموح شخصي، أو علوٌّ في الأرض أو فساد.

وكان هذا السفر الشاق المضني من الهند مع جيش من المهاجرين لا يقلّ عن جهاد، ولا يتغلَّب على صعوباته إلا الإيمان القوي، والعزم الراسخ، والفكرة المتغلغلة في الأحشاء، القاهرة للشعور بالألم والتعب، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [النساء: ١٠٤].

وأسَّسوا فعلاً دولةً شرعيةً في الحدود الهندية الشمالية والغربية، تشتمل على (بشاور) وما جاورها من البلدان والقرى، ونفَّذوا الحدود الشرعية، وطبقوا النظام الإسلامي المالي والإداري تطبيقاً دقيقاً، وشهد التاريخ نموذجاً

للخلافة الإسلامية الراشدة، بعد ما توالت قرون طويلة على حكومات المسلمين شبه (العلمانية) و(الزمنية) فيما يتصل بالأحكام الشرعية، والقوانين الإسلامية.

ولكن ذلك لم يدم طويلاً، فوقع ما تكرر في التاريخ الإسلامي من نزوة الأهواء وهجوم الجاهلية الجريحة الموتورة، فلم يرضَ هذا الوضع القبائل التي تقطن هذه المنطقة لاصطدام هذا النظام بمآربها الشخصية، وأعرافها القبلية الجاهلية.

ووقعت المعركة الحامية في (بالاكوت) (في الحدود الشمالية الغربية)، واستشهد الإمام السيد أحمد رحمه الله، وصاحبه العلاَّمة محمد إسماعيل رحمه الله ابن عبد الغني ابن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي، وكبار أصحابهما بعد بطولات نادرة، وشجاعة خارقة للعادة، وذلك في ٢٤/ من ذي القعدة، عام ١٢٤٦هـ، (٦/ من مايو، سنة ١٨٣١م).

ولم يزل خلفاؤه وأتباعهم في الهند قائمين على الحق، باذلين في ذلك النفس والنفيس، والإنكليز يطاردونهم ويضطهدونهم، ويصادرون أملاكهم وأموالهم،

ويحاكمونهم محاكمات طويلة عريضة[1]، وقد حكم على بعض بالشنق وبالنفي المؤبد، وعلى بعضهم باعتقال طويل مع أعمال شاقة[2] وهم صابرون محتسبون، لا يضطربون ولا يتزعزعون، ولا يلينون ولا يستكينون، حتى كانت ثورة ١٨٥٧م، التي تزعمها المسلمون، وأسهم فيها المواطنون، وأخفقت لأسباب يطول ذكرها، وقوبل زعماؤها بصفة خاصة والمسلمون بصفة عامة بوحشية نادرة[3]، واستتب الأمر للإنكليز، ودخلت الهند في الحكومة البريطانية بصورة عامة.

وكان من أتباعه وخلفائه أمثال السيد نصير الدين، ومولانا ولايت علي العظيم آبادي، على قدمه من هذا الجمع النادر العجيب، وتبعهم مولانا يحيى علي، ومولانا أحمد الله

---

(١) اقرأ كتاب (The Great Wahabi Case) (محاكمة قضية الوهابية الكبرى) وكتاب Our Indian Musalmans, W, W. Hunter (مسلمو الهند).

(٢) اقرأ فصل (امتداد تاريخ الجهاد والبطولة)، وفصل (من الشنق إلى النفي) في كتاب المؤلف (إذا هبَّت ريح الإيمان).

(٣) اقرأ كتاب المؤلف (المسلمون في الهند) فصل (الدور الذي قام به المسلمون في الهند).

الصادقبوري، وإن أحاديث جهادهم ومحنتهم، وصبرهم على المكروه، واحتمالهم الشدائد، تذكرنا بمحنة الإمام أحمد بن حنبل، فتارة نراهم على متن الخيل، وتارة في مشنق (أنباله)، وتارة في منفى جزيرة أندمان في المحيط الهندي، وتارة في زاويتهم وبين مريديهم، يعلّمونهم أشغال الطريقة المجدِّدية، والطريقة المحمدية، طريقة السيد أحمد الشهيد، وفضل الجهاد والشهادة، وإذا وضعنا تضحيات أهل صادق بـور وجهادهم في كفـة، رجحت هـذه الكفة[1] كفة كثير من المجاهدين الأبطـال في تاريخ الهند الإسلامي البطولي.

علماء الهند وشيوخها، في ساحة الحرب وميدان الإصلاح:

وقد استمر هؤلاء الشيوخ من بعدهم في الجهاد في سـبيل الله، فرأينـا الشـيخ الكبير الحاج إمـداد الله المهاجر

---

(١) ليراجع كتاب (إذا هبّت ريح الإيمان) وكتاب (الإمام الذي لم يُوَفَّ حقه من الإنصاف والاعتراف) ورسائل الإمام الشهيد إلى الملوك والأمراء، وأهل الغَيْرة والإيمان في الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، وتطبيق الشريعة الإسلامية في الحياة الفردية والاجتماعية، وإقامة حكومة شرعية على منهاج الكتاب والسنة.

المكي، والشيخ الحافظ ضامن، والشيخ محمد قاسم، ومولانا رشيد أحمد الكنكوهي في ساحة (شاملي)[1] يقاتلون الإنكليز، واستشهد الشيخ ضامن في ساحة الجهاد، ويضطر الشيخ إمداد الله إلى الهجرة، ويضطر الشيخ النانوتوي، والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي إلى التستر والخفاء مدة من الزمان، وكان الشيخ أحمد الله شاه، والشيخ لياقت علي من المشايخ الكبار، الذين قادوا الجيوش لقتال الإنكليز في ثورة ١٨٥٧م الكبرى، وتولوا كِبْرها، واستشهد بعضهم، وقتل بعضهم شنقاً.

ثم جاء بعدهم الشيخ محمود حسن الديوبندي[2] ـ الذي لُقِّب بحق، شيخ الهند ـ وأعدَّ عدته للجهاد ضد الإنكليز، وأراد إنشاء حكومة مستقلة في الهند، فيها الأمر والنهي للمسلمين، ودفعه طموحه وهمّته إلى الاتصال بتركية، والانسجام معها على خط الثورة والجهاد، إن

---

(١) قرية جامعة في مديرية (مظفر نغر) ما بين (دهلي وسهارن بور).

(٢) ومن خلفائه وأتباعه الكبار في مهمة الكفاح ضد الحكومة الإنكليزية ومحاولة تحرير الهند، الشيخ حسين أحمد المدني شيخ الحديث بدار العلوم ديوبند، ورئيس جمعية العلماء والقائد الإسلامي الكبير (م١٣٧٧هـ).

الرسائل الحريرية والاجتماع بأنور باشا، واعتقاله في جزيرة (مالطة) كل ذلك يدل على علو همته، ونشاطه الدائب المستمر، وصدق الله العظيم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

الشواذّ من المستسلمين والخائنين لا يحكم بهم على القوم:

فكيف يصحُّ القول ـ إذاً ـ مع هذا الشهادات المتواترة المتلاحقة، أنَّ التصوُّف هو رمز البطالة والكسل، والفرار عن معترك الحياة، والانسحاب عن ميدان الكفاح والنضال؟ فإذا وجدنا هناك أمثلة شاذّة لبعض أصحاب الطريقة والمتصوّفين الذين آثروا الانعزال، ومالؤوا بعض الحكومات الأجنبية، أو خدموها، فهناك في جانبٍ آخر عددٌ أكبر من أئمة التصوّف، وشيوخ الطريقة الذين فاقوا أولئك المتصوّفين المنتسبين إلى الطريقة، ومكانتهم الروحية السامية، وامتازوا عنهم في الكفاح والجهاد، والقتال والنضال، والبقاء في معترك الحياة.

المحبّ الصادق لا يعرف للحياة قيمة، ولا يحسب للمخاوف حساباً:

إنَّ التصوّف، إذا وُجد في صورته الأصلية الصادقة، وانسجم مع منهاج النبوّة وحمل راية اليقين والحب ـ التي هي من أهم أغراضه ونتائجه ـ فإنه ينفخ في أبنائه روح العمل، والشوق إلى الجهاد، وعلوّ الهمّة والطموح، والحنين إلى الشهادة والتقشّف والجلادة، فإنه إذا تدفّق ينبوع الحبّ الإلـهي في قلب الإنسان تغنّى وجوده وكيانه بما أنشده الشاعر الفارسي:

«أيها الرجل الذي يتغنّى بالحبّ ويتشدّق بالكلام عنه، تجرَّد عن ذاتك، واعرض نفسك للمهالك، وقابل الموت وجهاً لوجه، وإلا فدعِ الانتساب إلى هذا الطريق وأهله».

* * *

أنموذج كريم من الطراز القديم

الفرق بين عارف بالله، ومتبحّر في علوم الدنيا:

وقع إليّ كتاب صغير في أردو اسمه (إرشاد رحماني) من تأليف العالم الرباني الشيخ محمد علي المونكيري مؤسس (ندوة العلماء)، ذكر فيه بأسلوب طبعي مؤثر مقابلته مع بعض كبار المخلصين والعلماء الربّانيين في عصره، وخص بالذكر شيخه مولانا فضل الرحمن(١) الكنج مراد آبادي، عليه رحمة الله، وكيف تعرّف به، وكيف كانت زيارته

---

(١) ولد في سنة ١٢٠٨هـ، وتوفي إلى رحمة الله تعالى سنة ١٣١٣هـ، و(كنج مراد آباد) قرية جامعة في مديرية (أناؤ) في الولاية الشمالية في الهند، وله ترجمة حافلة جميلة، في الجزء الثامن من كتاب: (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر) للعلامة السيد عبد الحي الحسني الذي كان من أصحابه وتلاميذه الروحيين.

الأولى في (كانفـور)، وكان يـومئذٍ طالباً يـدرس الفلسـفة والمنطق، شأن طلبة العلم في عصره، وكيف قابله الشيخ، كأنه كان منه على ميعاد، وقـال: «هذا ولدي!» وسأله عن الكتب التي يقرؤهـا، ولمّا ذَكَـرَ كتب الفلسـفة والمنطق، امتعض الشيخ وقال: «نفرض أنك قرأت هذا الكتاب وبرعت في هذه العلـوم (اليونـانية)، فماذا بعد؟ وأي فائـدة تجنيها؟ اِمشِ معي إلى قبر رجل، لم يعرف من هـذه العلوم قليلاً ولا كثيراً، ولكن عرف الله، وكان له معه شأن، ثم امشِ معي إلى قبر فلان من أئمـة المنطق ومن كبـار المؤلِّفين في هذا الموضوع، تَرَ عجباً!.

من فيض الحب والعاطفة:

وذكر كيف تملّكه حب الشيخ، وكيف كانت له معه محادثات ومقابلات، حتى استأثر به الشيخ، وكان من أخصّ أصحابه، وذكر سيرته وتجرده من أسباب الدنيا، وإقباله إلى الله بقلبه وقالبه، واطّراحه على عتبة عبوديته وشدته في اتّباع السـنَّة والتمسُّك بما ثبت منها وصحّ في الأذكـار والأدعية والأفعال والأحوال، كنت أقرأ ذلك ويسيغه عقلي الصغير، ويلتذ به شعوري، وأعجبني بصفة خاصة أبيات كان ينشدها

الشيخ، تدلُّ على أنه كان صاحب عاطفة قوية، ويغلي في قلبه مرجل الحب والحنان، فيتسلّى بهذه الأبيات التي ينشدها في بساطة، وكأنه يعتذر إلى من يعدُّ ذلك نكراً، ويقول:

سقَوني وقالوا: لا تُغنِّ ولو سقوا
جبال سُليمى ما سُقيتُ، لغنَّت

غاية العلم، العمل:

وقريباً من تلك الأيام صادفتُ ورقاتٍ مطبوعة لوالدي العلامة السيد عبد الحي الحسني رحمه الله، وسمّاها: (استفادة) قصَّ فيها قصة رحلاته إلى الشيخ فضل الرحمن، عليه رحمة الله، كان يومئذٍ طالباً في (لكهنؤ) بلغته وفاة الشيخ، فتأسف على ذلك أسفاً شديداً ثم بلغه نفي هذه الشائعة، وأنَّ الشيخ لا يزال حياً، فشد الرحل إلى (كنج مراد آباد) وقطع مسافة طويلة لم يقطعها في عمره من قبل راجلاً وهو لا يشعر بالكلل والتعب من شدة الشوق، ووصل إليه وهو مضطجع وعنده أصحابه، فسأله عن وطنه، فلما ذكر والدي رحمه الله أنه من (رائي بريلي) من زاوية العارف بالله الشيخ علم الله الحسني، حوّل الشيخ جنبه وقال: «لقد

كان عَلَماً»، ثم سـأله عن الكتب التي يقرؤهـا، فلما ذكـر هداية الفقه وأمثالها، قال: إن الغاية من التعلم هو العمل، وقد كان المخلصون يتعلمون ليعملوا.

كان الشيخ العارف محمد مينا اللكهنؤي يقرأ شـرح الوقايـة، فلما انتهى من كتـاب (الصلاة) أطبـق الكتاب، فسـأله أستاذه عن السـبب، قال إن الغرض مـن التعلُّم هو العمل، وقد فرض الله عليَّ الصلاة فتعلمت أحكامهـا، فإذا فرض علي الزكاة وملكت النصاب قرأت أحكامها كذلك، أما الآن فلا أتشاغل بتعلم ما لا أستطيع العمل به»[١].

نفحات الإيمان والحنان:

يقول والدي، رحمـه الله، لا أذكـر أني وجدت في قيـام الليل لذة، وجدتها في تلـك الليلـة، وأخذ الشيخ بيدي من غير طلب مني ولقَّنني كلمات التوبة، وحثّني على قراءة (الحصن الحصين) ـ مجموع الأدعيـة والأذكار المأثورة للجزري ـ وقال: أعرف مئات من الناس أكرمهم الله بالولاية

---

(١) إنَّ مثل هذه الحكايات لا يُحتجّ بها في الدين ولا يُقتدى بها، ولكنّ ذكرها لا يخلو من فائدة لأنها تحثّ على الإخلاص، وعلى وجهة نظر خاص (الحسني).

بقراءة هذا الكتاب والتزام الأدعية المأثورة.

وهنالك تملكته العاطفة، وأنشأ ينشد الأبيات الرقيقة الرائقة بالفارسية والأردية والهندية، منها بيت في الأردية، معناه: «لا تتعب نفسك يا من يبحث عن القلب في صدري، إنما هي حشوة من رمادٍ فيه النار كامنة»، وبيت للحكيم السنائي الشاعر الفارسي المعروف، معناه: «أسخن الله عين السنائي، إذا أراد أن يعيش ويقضي أياماً غير متَّبع سنة الرسول»، وبيت بالهندية القروية «إن عيناً حلّ فيها المحبوب، ووقع منها كل موقع، لم تبصر الجمال في غيره».

غرام بحديث الرسول:

وكان من عادة الشيخ، رحمه الله، أنه كان يقرأ الجامع الصحيح للبخاري كل يوم؛ وكان له شغف زائد بالحديث، وغرام لا يكاد يعدل به ـ بعد القرآن شيئاً ـ وكان إذا قرأ الدرس ترنحت أعطافه وفاض خاطره، وكان كبير الإعجاب بالجامع الصحيح بصفة خاصة، وكان يقرأ الدرس كل يوم مرة أو مرتين، وكان والدي سعيداً جداً إذا قرأ الشيخ له الدرس ثلاث مرات، وبقي الوالد يلتذ بهذا الدرس طول حياته، ويذكره بلذة غريبة وسرور عظيم، ويقول:

(لا أستطيع أن أصف هذ الدرس وحلاوته، وتأثيره في القلب، فليس الخبر كالعيان، وسمع منه الوالد الحديث المسلسل بالأولية وهو قوله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، اِرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، والمسلسل بالمحبة وهو الحديث المشهور: «يا معاذ إني أحبُّك فقل: اللهمَّ أعنِّي على ذِكرِكَ وشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادتِكَ»، وقال الشيخ: «سمعته أذناي من شيخنا عبد العزيز بن الشيخ ولي الله الدهلوي، وأنا أجيزك بروايته).

هوان الدنيا وعظمائها، في عيون العارفين:

وقرأتُ بعد ذلك مقالة للسّري الفاضل، المؤلِّف البارع، الشيخ حبيب الرحمن الشرواني رحمه الله وزير الأمور الدينية في إمارة حيدر آباد، وصف فيها رحلته واجتماعه بالشيخ الكبير، وارتسامات هذه الزيارة، فذكر أنه سبقه إلى زيارة الشيخ بيوم واحد، كبير أمراء حيدر آباد، ومن أعظم الأغنياء والوجهاء في عصره (نوَّاب خورشيد جاه بهادر)، وكانت زيارته الملوكية، وما أنفق في طريقه إلى (كنج مراد آباد) مقرّ الشيخ، من نفقات عظيمة، حديث المجالس والنوادي، وكل من صادفه في الطريق حدَّثه عن

هذه الرحلة العظيمة، وعن هذه الأريحية الكبيرة، وعن غنى الزائر العظيم، وعن ركبه وخيام وحشمه، ولكنه لما وصل إلى (كنج مراد آباد)، لم يسمع له ذكراً، وكأن هذا الأمير الذي دوَّت له الأرجاء، وصفّق له الجمهور، وتحدثت به المجالس، لم يزر هذه القرية الصغيرة، ولم يسترعِ اهتمام أحد، إنه لم يسمع في هذه القرية خبراً عن ذي جاه كبير ومال وفير، إنما هو حديث عن الله والرسول، كأن هذه القرية لا شأن لها بالعالم، ولا صلة لها بالخارج، إنما هي جزيرة منقطعة يسود فيها السلطان الديني، ويحكم فيها عبد من عباد الله المخلصين، تحرر من سلطان المادة فدانت له الدنيا، وأعرض عن الدنيا فأتته راغمة، قال: «ولم أرَ نفسي أصغر في عيني منها ذلك اليوم».

وسمعت الشيخ حبيب الرحمن يتحدَّث كثيراً عن شيخه، ويحكي حكايات في زهده وكبر نفسه وإخلاصه، واستخفافه بأهل الدنيا، وأصحاب الوجاهة والأموال، وقرأتُ لغيره كالشيخ تجمل حسن البهاري، والسيد نور الحسن ابن المؤلف ـ الشهير الأمير السيد صديق حسن خان القنُّوجي البخاري كتباً ورسائل ـ وأكثر أعضاء الندوة من تلامذة الشيخ ومريديه ـ فأمكنني أن أعرف الشيء الكثير

من سيرته وأخباره، وكان كلّه معجباً مطرباً يملأ القلب بالإيمان، ويحقّر المادة وعبّادها ويعظم الدين وأهله.

كيف قابل الشيخ حاكم الولاية الإنكليزي؟:

فمن ذلك أن حاكم الولاية الإنكليزي قصد زيارته مرة، وشاع ذلك في الناس، ووصل الخبر إلى كنج مراد آباد، فأهمّ الناس، وشغل خاطرهم، وذلك لأن الإنكليز كانت لهم صولة في البلاد بعد عام ١٨٥٧م لا تقدر الآن، ولا يستطيع هذا الجيل الذي نشأن بعد حركة التحرر أن يفهمها ويعرف خطرها، وكانت زيارة حاكم كبير يحكم في ولاية من كبرى الولايات الهندية ـ هي الولايات المتحدة (آكره وأوده) ـ حادثة ذات شأن، واهتم الناس باستقباله، وقد عرفوا أن الإنكليز لا يجلسون إلاّ على الكراسي، وزاوية الشيخ فقيرة ليس فيها كرسي ومقاعد حديثة، وعرف الشيخ اهتمام الناس، واستخف باهتمامهم بهذا الأمر التافه، الذي لا ينبغي أن يشغل قلب المؤمن، فتساءل ما يهمكم يا جماعة؟ قالوا: حاكم الولاية يزور الشيخ وليس ههنا مقعد لائق به!.

وكأن الشيخ أراد أن يلقي عليهم درساً في الإيمان

ويُريهم منزلة أرباب الدنيا في عين أهل الدين فقال: «ويحكم! أليست هنا جرّة نشرب منها؟ قالوا بلى، قال: فنقلبها ويجلس عليها، وسكت الناس، وجاء الحاكم فلم يكن من الشيخ إلاّ أن أشار إليه بالجلوس، ولكنه بقي واقفاً، وحادثه الشيخ كما يحادث من لا شأن له من الناس ولا خطر، وانتقد حكومته، وقال: قد فشت الرشوة في حكمكم فشوّاً كبيراً! والحاكم منصت خاشع، وقرينته جالسة تسمع، وقال: إن فيكم وقاحة وقلة حياء، يشير إلى سفور المرأة، ثم انصرفا وانصرف الناس إلى أشغالهم وعادت القرية إلى هدوئها.

نظرته إلى المال وتلطّفه في إعانة ذوي الحاجة والخصاصة:

وحكى لي الشيخ حبيب الرحمن أنه أهديّ إليه يوماً في المساء خمسمئة روبية، وهو مقدار كبير من المال في عصر الشيخ ـ فقد توفي في فجر هذا القرن ـ فقال عليّ بالحمالين والعملة، فقد أشرف جداري على التهدم، وجاء الفقراء، وأهل الحاجة، وهم يعرفون عادة الشيخ، فاشتغلوا بالجدار، وما عليه بأس، إنما هي عادة الشيخ في توزيع المال على ذوي الحاجة والخصاصة، المتعففين الذين

لا يسألون الناس، ولا يفطن بهم الناس، ثم وزَّع عليهم المال كله ورجعوا إلى بيوتهم، وعرض له بعض أصحابه وقال: إنا لم نرَ بجدار الشيخ بأساً فما الداعي إلى هذه العجلة؟، فقال: كيف لو سقط الجدار وتهدم البيت؟ وعرف الرجل أنه حرص الشيخ على أن لا يبيت وعنده درهم أو دينار، وإنما هو اتّباع النبي ﷺ.

طراز إنساني لا يقاس بمقاييس العصر:

إن مثل هذه الحكايات والأخبار، ـ وقد رويت عن غيره من الأولياء المتقدمين، وعباد الله الصالحين ـ أفادتني كثيراً، دراستي لهذه الكتب والرحلات في ريعان الشباب ومُقتَبَلِ العمر، سعادة عظيمة، فقد تعرفت بطراز آخر من الرجال غير الطراز الذي عرفته، ونشأت معه، والذي كنت أراه حولي في عصر قد طغت فيه المادية، وقويت فيه الدعوة إلى المال والوظيفة، وأصبح الناس يقاسون بمقياس واحد وهو مقياس (الرواتب والإيراد) كان الشيخ فضل الرحمن يمثّل هذا الطراز الذي يعيش بالإيمان ويعيش للإيمان، والذي صغرت في عينه المادة، وهان أهلها، وجلّ الدين ورجاله، والذي كان يمثّل بأخلاقه وحياته ذلك (اليقين)

الذي امتاز به عصر الصحابة، والمؤمنون في القرون الأولى، وذلك (الحب) والعاطفة القوية، التي نجد فيه لذّة الحياة ولذّة الإيمان، ويسهل معها علينا الاتّباع الكامل للأحكام، والتغلب على الشهوات، ومتابعة النبي ﷺ واقتفاء آثاره.

فضل دراسة سير المخلصين والربّانيين، وحبّهم في تكوين السيرة، والتربية الخلقية:

قد أحسنت إليّ هذه الدراسة من ناحية أخرى، فقد عرفت بها أن الطبيعة الإيمانية لا تزال منتقلة من جيل إلى جيل، وأن المصابيح بعضها يشتعل من بعض، وأن الله قد تكفل بحفظ هذه الخصائص الإيمانية، كما تكفل بحفظ مصادر الدين.

لقد نشأت بفضل هذه الدراسة على حب هذا الطراز الرفيع من الإيمان والإخلاص، وإجلاله، كان العاصم لي من الاندفاع إلى شخصيات عظيمة في العلم، صغيرة في المعاني الإنسانية، غنية في المظهر، فقيرة في (الحقيقة)، تضاف الفضائل إلى أصحابها ـ من شهادات يحملونها، ورواتب يتقاضونها، وقصور يسكنون فيها، وحكومات يتجملون بها، ـ ولا تنبع من نفوسهم وقلوبهم، ولا تتصل

بشخصيتهم، فهم إذا تجردوا منها أو سُلبوها، أفلسوا إفلاساً كاملاً، وماتوا قبل أن يموتوا، بالعكس، من أصحاب الإيمان والإخلاص، والصدق والتقوى، والزهد والقناعة، وكبر النفس وغنى القلب، فلا يمكن تجريدهم من هذه الفضائل، وحرمانهم ثروتهم.

لقد نشأت بفضل هذه الدراسة على رغبة صادقة، في الاجتماع بأمثال هؤلاء، والبحث عنهم، انتهت بي إلى الوصول إلى بعضهم الذين كان لهم فضل كبير في منهج الحياة الذي آثرته أخيراً، وأحب البقاء عليه:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلباً فارغاً فتمكنا

* * *

كيف يستقبل العَارفون المحبّون الموت ويَودِّعونَ الدنيا؟!

ساعة الموت مرآة، تتجلى فيها المعاني الروحية والمراتب الإيمانية:

إن وفاة المحبين والعارفين، وعباد الله المقرَّبين، من أروع الصوّر، التي تبرز فيها المعاني الروحية السامية (أمثال الحب والوفاء، والشوق إلى اللقاء، والثقة بوعد الله، والحنين إلى رضاه حية شاخصة، جميلة رائعة، فهي ساعة تتجلى فيها كل هذه المعاني والحقائق التي جاهدوا لأجلها، وتفانوا في سبيلها، وعاشوا في جوّها، وحنُّوا إليها، كما يحن الطائر المحبوس إلى وكره، حتى إذا وافتهم هذه الساعة، كانوا أشد شوقاً وإيماناً، ورقَّة وحناناً، وطرباً واهتزازاً[1]، وطرأت عليهم أحوال وآثار، وأقبلت بوادر

(١) وفي مثل ذلك لما قال القائلون. وقد شاهدوا ما يعانيه بلال=

خير وطلائع سعادة، يغبطهم عليها كثير من الأحياء وأصحاب النعيم والسعادة، ويتمنَّون الوصول إلى هذه المكانة السامية، والحصول على علامات القبول في هذه الساعة الدقيقة الفاصلة، التي هي محصول الحياة ولب اللباب.

موت الصدِّيقين برهان ساطع على صدق الإسلام، وقوة الإيمان:

ويورث ذلك في كثير ممن شرح الله صدرهم، ورزقهم الإنصاف من غير المسلمين وكثير من الشاكّين المنكرين إيماناً، بأن هنالك حقائق غيبية، وعالماً وراء الحس والمادة أجمل وأوسع يهيم به الهائمون، ويحن إليه المؤمنون المصدقون، وأن الأمر رأي عين، لكثير من أصحاب العقيدة والاتّباع، وإن لتعاليم الإسلام وحياة الرسول تأثيراً في نفوس المسلمين، لا يوجد له نظير - في العمق والقوة، والتغلغل في الأحشاء - في الفلسفات الاقتصادية، والتعاليم المادية.

وهنا نعرض نموذجين - من بين النماذج الكثيرة التي

= مؤذن رسول الله ﷺ من شدائد المرض وغمرات الموت «واكرباه»، لم يملك بلال نفسه، فقال: - وقد أفاق من غشيته -: «بل واطرباه»، غداً ألقى الأحبّة؛ محمداً وحزبه.

طفحت بها كتب السير والتراجم ـ ونحكي قصة وفاة علَمين من أعلام الصوفية في الهند أحدهما من رجال القرن الثامن الهجري، وهو الإمام شرف الدين يحيى المنيري (المتوفى ٧٨٢هـ).

وثانيهما العارف الكبير الشيخ فضل الرحمٰن (الكنج مراد آبادي) المتوفى في فجر القرن الرابع عشر الهجري.

كيف فارق الشيخ يحيى المنيري، الحياة واستقبل داعي الله؟ :

يقول الشيخ زين بدر العربي من أخصّ أصحاب الإمام شرف الدين يحيى المنيري وهو يحكي خبر وفاته، وكيف فارق هذه الحياة، ولقي ربه؟ :

«كان يوم الأربعاء اليوم الخامس من شوال سنة اثنتين وثمانين وسبعمئة، وقد منَّ الله علي بالمثول بين يديه، فوجدته جالساً على سجادته متكئاً بوسادة، وقد كانت عنده جماعة من أصحابه الذين باتوا ليالي ذوات العدد ساهرين بجواره وقد برّح به المرض، فجعل يردّد بلسانه كلمة: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، ثم أقبل على الحاضرين وقال لهم: «قولوا كذلك فأطاعوه وحوقلوا ثم قال مبتسماً: عجباً

للشيطان الرجيم إنه يحاول أن يفتنّي في مسألة التوحيد، ولكن الله يلطف بي، فلا سلطان له عليَّ ولا سبيل له إليّ بحول الله، ثم عاد يحوقل، وأمر الجلساء بذلك.

ثم عاد فاشتغل بأوراده وأدعيته، وانتهى منها في الضحى، واشتغل بالحمد والثناء على الله، وجعل يحمد الله، ويقول: الحمد لله، الحمد لله بصوت عالٍ ويقول: إن الله لطف، ويقول: المنَّة لله، المنَّة لله، المنَّة لله، وجعل يردّدها بفرح قد فاض به القلب وامتلأ به الباطن، وجعل يرددها، ويقول: المنَّة لله، المنَّة لله، ثم برز من الحجرة، ومدَّ يده كأنه يريد أن يصافح، وتناول يد القاضي شمس الدين وأمسكها مدة ثم أرسلها، وبدا يودّع أصحابه.

وهكذا كان يأخذ أيدي خواص أصحابه ويلاطفهم، فأمسك يد القاضي وضمّها إلى صدره وهو يقول: نحن أولئك، نحن أولئك ثم قال: نحن أولئك المجانين، نحن أولئك المجانين، ثم غلب عليه التواضع، فقال: لا، لا، بل نحن تراب أقدام أولئك المجانين، ثم أقبل على الحاضرين يلاطفهم ويؤنسهم، ويثير فيهم الثقة برحمة الله تعالى، ثم قال بأعلى صوته: «لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب

جميعاً»، ثم أنشد بيتاً فارسياً معناه: «يا رب إن رحمتك بحر يسع الجميع، وقطرة منه تروي ظمأي، وتشفي غُلّتي»، ثم خاطب الحاضرين وقال لهم: «إذا سُئلتم غداً فقولوا: لقد حملنا بشرى، لا تقنطوا من رحمة الله، وإذا سُئلتُ أنا فأقول ذلك».

ثم جعل يردّد كلمة التوحيد بصوت عالٍ ويقول: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»، ويقول: «رضيت بالله ربّاً وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قِبلةً، وبالمؤمنين إخواناً، وبالجنة ثواباً، وبالنار عذاباً»، ودعا للحاضرين بحُسن العاقبة، وجعل يلاطف أصحابه ويعطف عليهم ويدعو لهم بالخير، ويشكرهم على حسن صحبتهم، ووفائهم، ويذكر أنه لا ينسى فضلهم، وإن الله سيكافئهم على صنيعهم، ويجمع بينه وبينهم في دار النعيم، فإذا لطف الله بي وأدركتني برحمته فلا يشقون بها، وبالغ في إكرام أصحابه والتودُّد إليهم ومؤانستهم، ولسانه يفيض بالحمد لله.

ثم أرخى يديه، وجعل يصلّي على النبي عليه الصلاة والسلام، وذكر بعض أصحابه الذين تغيَّبوا أو نأت بهم الدار

فجعل يثني عليهم ويدعو لهم بالخير، ويشكر برّهم ووفاءهم وحسن عهدهم، وبايع بعض الحاضرين، وجدد بعضهم البيعة، وجعل يدعو لأصحابه بحسن الخاتمة، والاستقامة على الإسلام، والموت على الإيمان، وجعل كثير ممن كانوا في بلاد بعيدة يتوافدون عليه، والشيخ يؤنسهم ويعطف عليهم، ويدعو لهم بالبركة، وحُسن العاقبة، ثم قال لجلسائه: «انصرفوا راشدين وليكن همّكم والشغل الشاغل لكم الإيمان».

وفي أثناء ذلك حضر الأمير شهاب الدين مع ابنه الصغير، وحانت من الشيخ التفاتة إلى الولد فقال: «هل يستطيع هذا الغلام أن يتلو آيات من القرآن فقال الأمير نعم! فقال الناس: إنه أصغر من ذلك، وعرف بعض الحاضرين أن الشيخ يحنّ إلى سماع آيات من القرآن، فأشار إلى ابن صغير لأحد أصحابه، وجلس الغلام بين يديه متأدباً، وقرأ خمس آيات من آخر سورة (الفتح) من قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ . . .﴾ [الفتح: ٢٩].

وكان متكئاً فجلس متأدباً، وأقبل على سماع القرآن كليّاً، وفرح الشيخ بقراءته وأثنى عليه، ثم تهيّأ للوضوء،

وطلب الماء، وطلب السواك، وجهر بالبسملة، وأخذ في الوضوء، وهو يدعو بالأدعية التي كان يلتزمها وغسل اليدين إلى المرفقين وذهب عليه أن يغسل الوجه فنبّهه على ذلك الشيخ فريد الدين فاستأنف الوضوء، وجعل يدعو بالأدعية بكل اهتمام، والناس يعجبون من ذلك ويتحدثون بأن الشيخ لا يخلّ بسنة من السنن ولا بأدب من آداب الوضوء، وهو بهذه المنزلة من الضعف والنقاهة وعلو السنّ.

وأراد القاضي الزاهد أن يساعد الشيخ في غسل الرجلين فامتنع، وباشر الوضوء بنفسه، ودعا بالمشط فمشط اللحية ثم دعا بالسجادة وأقبل على الصلاة، وانصرف عن ركعتين واستراح قليلاً، وقد تعب، ودخل الحجرة وهو يتهادى بين رجلين، واضطجع على جلد مدبوغ، واستجد بعض الناس البيعة فقبّلها وكان آخر بيعة بايعها.

وآذنت الشمس للغروب واستلقى على السرير، وصلى المغرب وحوله أخصّ أصحابه، ورفع الصوت بالبسملة وأعادها مراراً ثم قال: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»، ثم جعل يبسمل ونطق بالشهادتين، ثم قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، ثم بدأ يردد الشهادة تتخللها

البسملة، ثم قال: لا إلـه إلا الله محمد رسول الله، ثم قال وقد ملكه الذوق وفاضت الكأس بالحب: محمد، محمد، محمد، ثـلاث مرات، اللهم صلي على محمـد وعلى آل محمد، وتلا: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤]، ثم قال: رضيت بالله ربّاً وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبيّاً إلى آخر ما قال في المرة الأولى.

ثم ردد الشهادة ثلاث مرات، ورفع يده إلى السماء وقال: في غاية الشوق والإلحاح، اللهم اصلح أمة محمد ﷺ، اللهم ارحم أمة محمد ﷺ، اللهم تجاوز عن أمة محمد ﷺ، اللهم أغث أمة محمد ﷺ، اللهم انصر من نصر دين محمد ﷺ اللهم فرّج عن أمة محمد ﷺ فرجاً عاجلاً، اللهم اخذل من خذل دين محمد ﷺ، برحمتك يا أرحم الراحمين، وانخفض صوتـه بعد ذلـك وهو يقول: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، لا إلـه إلاّ الله، ثم قال مرة: بسم الله الرحمن الرحيم، وفاضت روحه.

وكان ذلك مساء الخميس لست خلون من شوال سنة اثنتين وثمانين وسبعمئة[1].

---

(١) ملتقط من رسالة (وفاة نامة) للشيخ زين بدر العربي.

يوميات ومذكرات يسجّلها بعض كبار الأصحاب :

وفيما يلي قصة وفاة العارف الكبير، وهو الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي (١٢٠٨ ـ ١٣١٣هـ) الذي جاء ذكره في الفصل السابق اقتبسناها من يوميات الشيخ محمد عبد الغفار الآسيوني، سمّاها (هدية العشّاق)، وكتاب (تواريخ نامة)، وضعه الشيخ أحمد نجل صاحب الترجمة.

صور رائعة من الشوق إلى اللقاء والاستغراق والفناء :

وهي تقدّم نموذجاً رائعاً من الاستقامة، واتِّباع السنّة النبوية والزهد في حطام الدنيا، ومن الحبِّ والتفاني، والإيمان واليقين، والشوق والحنين يقلُّ نظيره، وهي تدفعنا إلى الاقتداء بهَدْيهم، وتتبّع آثارهم، والسير في ركبهم الميمون، مهما أنكر المنكرون، وتطاول الجاهلون، ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففون : ٢٦].

٧ـ من ربيع الأول ١٣١٣هـ:

أمر أصحابه بعد أن انصرف عن صلاة العصر، بأن يأتوا بصحيح مسلم، فقرئ منه ـ إذ ذاك ـ ثلاث عشرة

صفحة، ثم أمر القارئ، بأن يعيد الكتاب إلى مكانه في المسجد، وكان ذلك آخر درس في الحديث الشريف.

٨ـ من ربيع الأول:

أفاض في ذكر رسول الله ﷺ في مجلسه، وأنشد شعراً رقيقاً مرتين، معناه:

«نما وتنضَّر الكلأ الذي وطأته قدماك، وازدهرت وأثمرت تلك الشجرة التي وقفتَ ساعة في ظلها»، فكان لإنشاده وقع كبير في النفوس، وغمرت الجميع موجة من الرقة، والعاطفة الفياضة، والحب النبيل، ثم أنشد شعراً آخر بالفارسية، معناه وشرحه: «أن من عادة السادة والأغنياء أن يزهدوا في شراء عبد دميم ذميم، أما سيدي الكريم (يعني الرب تبارك وتعالى)، فبالعكس قد خصّني وآثرني على عِلاَّتي (وكثرة عيوبي وسيِّئاتي)، ثم بكى وعاش برهة من الزمن في حالة يخونها التعبير، ويعجز عنها التصوير، وبينما هو في هذه الحال إذ تكلم، وقال:

«إن في أمة محمد ﷺ، رجالاً تحن الحور العين إلى رؤيتهم ويتلهفن لقدومهم، فحين يدخلون الجنة من غير حساب، يسرعن إليهم ليجدن منهم التفاتة، ولكنَّهم

لا يبالون، فقد شُغلوا بالتجلي الإلـهي عن كل شيء، يمرّون بالنار فتتعوذ منهم، تتلألأ وجوههم كما يتلألأ القمـر ليلـة البدر»، واشتدَّت به حالة الفناء والاستغراق، حتى أصبح لا يعرف ـ أحيانـاً ـ بعض خدمـه ومحبيـه، الذين كانـوا لا يفارقونـه لوقت من الأوقات، وكان من عادتـه أنه تتلى عليه الرسائل والخطابات بعد صلاة الظهر، فلما جاء دورها قال: «إنها اليوم لكثيرة»، ثم قرأ شيئاً ونفث عليها، وقال: «يسَّر الله أمورهم، وبارك في نيَّاتهم».

٩ ـ من ربيع الأول:

قال: إن الله سبحانه يحب عباده، فإذا أصيب عبده الصالح المخلص في شيء وصبر عليه، قال لملائكته: انظروا إلى عبدي، كيف صبر وشكر على مصابه، اشهدوا أني غفرت له، ثم أورد أحاديث في مناقب سيّدنا أبي بكر، وتملكته الرقة والعاطفة، وعاش في شوق وحنان مدة من الزمان، وظل على هذه الحالة من تزايد الضعف واعتلال الصحة إلى الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وكلما يسأل سائل عن صحته، يحمد الله، ويقول إنني على خير، وليس بي إلاّ شيء من الضعف، وكان يذكر أحياناً شيخه العارف (محمد آفاق) وآخرين من أولياء الله، ثم ينشد شعراً معناه:

«يا حمامة الأيك قصّي عليّ قصة ذلك الإنسان المشرد، الذي لا دليل عليه، ولا سبيل عليه، جزى الله عني من أحرق حشو الدماغ من فضول الصرف والنحو، والمنطق والفلسفة، وأذكى نار الحب الإلٰهي في قلبي، فما أعظمها من منّة، وما أجلّها من نعمة».

١٣ ـ من ربيع الأول:

أمر أحد أصحابه أن يجلس على سريره، ثم قال له: إن في السلف رجالاً، لم يقع عليهم بصر سعيد ـ ولو من بعيد ـ إلاّ وقد رحمه الله وغفر له، ومنهم من سرّح طرفه في رجل فأصبح من الأولياء والعارفين، وهنالك قال له بعض من شهد المجلس: «إنَّ الله أنعم على شيخنا ـ أيضاً ـ بهذه الهبة والنعمة»، فسكت ولم ينبس بكلمة.

وأصبح من صباح اليوم السادس عشر يردد هذا الشعر:

فسهّل يا إلٰهي كل صعب
بحرمة سيّد الأبرار سهّل

وكان ذلك دأبه إلى أن فارق الدنيا.

١٨ ـ من ربيع الأول:

حضره بعض رجاله يعودونه، فمكث غير بعيد، حتى مدَّ يمينه كأنه يصافح أحداً وقعد وقال: سأحضر قريباً، ما أريد إلاّ أن أغيّر ثيابي، ثم قال لمن بايعوه في هذا الوقت، أن يقولوا بايعنا الشيخ (محمد آفاق) ـ شيخ صاحب الترجمة ـ في الطريقة القادرية، الصلاة والصيام والزكاة والحج فرض، وهن أركان الإسلام، ولا تحضروا أعياد المشركين، مثل (ديوالي) و(دسهره) و(بسنت) أبداً.

١٩ ـ من ربيع الأول:

بردت رجلاه واعْترته الحمَّى، وظل في شبه غيبوبة، يقعد بين حين وحين، ويقول: ماذا أفعل الآن؟ فيطلبون منه أن يستريح، فيضطجع حالاً، وينشد الشعر الذي ذكرناه آنفاً:

فسهِّل يا إلٰهي كل صعب
بحرمة سيد الأبرار سهّل

ولم يقل أفّاً ـ قط ـ، في هذا المرض، بل قضى جلَّ وقته صامتاً، يتناول الدواء، ولا ينزعج به، أو يرفضه، كما كان شأنه من قبل.

واشتدت به الحمّى في المساء، وجيء بالطبيب، فسلّى زوجه ومحبيه، في أثناء ذلك أنشد الشيخ شعراً يقول فيه: «نفسي فداءً لغبار طريق الأسياد الأربعة: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي»، فوجدوا في هذا الشعر بعض الراحة والسلوى، وخف عنهم بعض ما يشعرون به من ألم وكرب.

وكان خبر اليوم التالي عجيباً، فقد أفاق من نومه فجأة، وقعد على فراشه، وظل يردّد، هذه هي الجنة، هذه هي الجنة، هذه هي الجنة، هذه هي الجنة، وهو يشير بيديه إلى ما حوله، ثم قال: قد شرفنا رسول الله ﷺ».

٢١ ـ من ربيع الأول:

هبَّ في الظهيرة مرة وهو يقول: لقد متُّ، فصلُّوا عليّ، وإذا لم يكن هناك من يصلي، فأنا أصلِّي بنفسي، والمقتدون واقفون، ثم كبَّر وبدأ الصلاة، فساور الناس القلق من فعلته هذه، وظنوا لعلها بادرة من بوادر الأجل.

الحنين إلى سماع الحديث الشريف:

وبعد لأيٍ قال: «أليس هنا من يقرأ الحديث الشريف؟ حتى ألفظ نفسي الأخير، والحديث يشنف أذني».

٢٢ ـ من ربيع الأول:

كـان يوم الجمعة، مدَّ بصره إلى ابنـه، ثم قبض بيده على يمينه قبضاً شديداً، ثم ألقى عليه نظرة ثانية، وبعد ذلك سـحب يده، وأغمض عينيـه، في السـاعة الثالثة والنصف من هذا اليوم رفع بيديه ورقَّ للدعاء والابتهال وقال: «اللهم بـارك في جميع مريـدي ومحبّي، وأصدقـائي وأحبـائي، وأقاربي، وأسعدهم بحسن الخاتمة، آمين، آمين، آمين».

الذكر الجلي:

في الساعة الرابعة والربع بدا منه التنفس، وأمسى يذكر الله سبحانه ذكراً جلياً، ويردِّد كلمة: «لا إلـه إلاَّ الله»، وكـان لا يذكر جليَّـاً بخلاف عادتـه، فإنـه كان لا يذكر إلاّ سرَّاً».

القبول العام وكثرة الزحام:

وكان عدد الوافدين والزائرين، والعشَّاق والمحبّين، يـزداد يومـاً بعد يـوم، وكانوا يتساقطون عليه، كما يتساقط الفراش على النور، والظِّماء على الماء الزُّلال، كل واحد منهم يتمنى أن يسعد برؤيته، ويوفق لخدمته، وشاعت في

البلد إشاعات عن وفاته عدة مرات، فأخذ الناس هرج ومرج، وزلزلوا زلزالاً شديداً، وقام كل امرئ عن مكانه يسرع نحوه، فحدثت بذلك صيحة في داخل الزاوية وخارجها، وقد حضر أكثر مريديه ومحبيه، في هذه المناسبة.

الحديث النبوي عند الوفاة:

فلما كان المساء، انقطع الرجاء، وذكر الناس وصيته، فقرأ بعضهم (كتاب الأربعين) في الحديث، وأمر ابنه أحد حضّار المجلس، أن يتلو شيئاً من صحيح مسلم، وأمرني أن أجهر بـه حتى يسمعه الجميع، ولكني تهيبتُ ولم أستطع ذلك نظراً إلى حالة الشيخ المنهارة المنذرة بالخطر، فما قرأت إلا صفحة واحدة من كتاب الإيمان، وحديثاً من آخر الكتاب، وأنهيتُ الدرس.

ظلَّ التنفُّس يشتد؛ وكان يرفع رأسه بين حين وحين، وطفق كل امرئ يقرأ ما بدا له من سور القرآن والآيات الكريمة، فمنهم من قرأ بالجهر، ومنهم من قرأ بالسر، ولم يكن في الحسبان أنها هي الساعات الأخيرة في عمره، ولكن غشيتهم سحابة من الحزن العميق لما رأوا من حالته، وانتهى سائر التدابير من غير جدوى، غير ما كانوا يلقون في

فمه من عصير الرمان، حين كانوا يبسملون يفتح فاه بنفسه، فيلقى فيه العصير.

المحافظة الدقيقة على السنَّة:

ورأوا أن يغيّر إزاره بالسروال، فأخذ بعضهم السروال ونزعه من رجله اليمنى فقبض هذه الرجل حالاً، ومدَّ رجله اليسرى، وذلك حرصاً على اتِّباع السنَّة والتزامها، حتى في هذه الوقت العصيب.

في ساعة الاحتضار:

فلما كان صلاة المغرب، بدا أن ساعة الفراق قد حانت، فاتفقوا على أن يحوّلوا سريره من غير أن يشعر به أحد، فجعلوا شمالاً وجنوباً، ووجّه وجهه نحو القبلة، وبدت علائم الاحتضار، وكان يبدو واضحاً جلياً أنه كان يردد: «لا إله إلاّ الله» خلال تنفسه، وكان ذلك شيئاً غير مألوف، فما كان يذكر بهذه الطريقة ولا يجهر بها بل كان يُخفيها تمام الإخفاء.

أما الذين أحاطوا بسريره، فقد أحاطت بهم سكينة وطمأنينة، ذهبت بالخوف والحزن، والهمّ والغم، وكان

فيهم عدد كبير من عشّاقه ومحبّيه، ولكنهم لم يكونوا يشعرون باليأس والاضطراب مطلقاً.

إلى الرفيق الأعلى:

ورأوا في هذا الوقت عجباً، فقد شهدوا ضوء القمر ـ وما كانت الليلة مقمرة ـ من خلال الشجرة المجاورة، ولكنهم لم يفكروا (إلاّ بعد فوات الأوان) أنه كان مظهراً من مظاهر الرحمة الإلـٰهية، وأنواره وتجلياته، ليس غير، وفي أثناء ذلك فارقت الروح جسده، وهو يذكر الله مع شدة التنفس: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون»، وهنالك انبعثت من جسده رائحة عطرة، فما مسّت ثوب أحد من جسده، حتى تعطّر.

الحزن العميق مع اتِّباع الشرع الدقيق:

وبدأ الناس يتساقطون بعضهم على بعض، وهم يبكون ولكن لم يظهر منهم ما يخالف السنّة، وهكذا طاب حياً وطاب ميتاً، ولم تفته السنَّة في مماته، كما لم تفته في حياته، فمن صرخ مرة أغمي عليه، أما الذين كانت أعينهم تفيض من الدمع، فقد كانوا مبهوتين صامتين، وكان الهنادك يبكون بجنب المسلمين، أما النسوة اللاتي توجَّهن باكيات إلى

الجنازة، خرست ألسنتهن لمّا وصلن إليها، ولم تنطق شفاههن في هذا الوقت إلاّ بكلمة: «لا إلـه إلاّ الله»، أو الصلاة على رسول الله، ولا غرو فإن الشيخ كان عدو النياحة والبكاء.

سحائب الرحمة والسكينة وآثار المغفرة والقبول:

وبات الجميع بجوار الجنازة، واكتظ المسجد وخارجه بالوافدين، أما طمأنينة القلب وسكينة الروح، وسحائب الرحمة، وأنوار السماء، فلا تسأل عنها، فكأن سرداقاً من النور ضرب أطنابه وغشي أصحابه، فالذين حلّقوا حول الجنازة اشتغلوا بتلاوة القرآن، وذكر الله، وكان الجو صافياً، لم يكدره همّ أو حزن، وكان يبدو أنه لم يقع هناك حادث أليم، وأن الشيخ يستريح شأنه كل يوم.

واستقر الرأي على أن يغسّلوه في نفس المكان الذي توفي فيه، وفي الصباح حملوه للغسل، وحسر رداءه عن جسده، فإذا وجهه وضيء مشرق كأنه وجه حي، والعجيب أن خده الذي كان نحيفاً هزيلاً، لكبر سنّه وشدائد مرضه، وفقد أسنانه، عاد ممتلأ ناضراً، وكان وجهه غضاً طرياً كالوردة لم يبق فيه للشيب أثر، ثم غسلوه على وجه السنّة،

وغمرت الناس عاطفة رقيقة، وشعور غريب، بالسكينة والحنان، لا يوصف ولا يصوَّر.

في جوار الله وأحضان رحمته:

وجيء بالجنازة بعد عناء شديد خارج المسجد، ووضع على صُفَّة باب المسجد للصلاة، وصلى عليه ابنه الشيخ أحمد، ودفن عند الساعة التاسعة، فلما دفنوه، وولوا إلى بيوتهم انبعثت شجونهم وأصبحوا في شبه ذهول لا يعرف بعضهم بعض، فلما زار قبره الشيخ العالم الرباني محمد علي المونكيري (مؤسس ندوة العلماء، وهو أكبر خلفائه، وتلاميذه الروحيين) عاودته ذكريات، فأغمي عليه وأفاق بعد زمن غير يسير، وزار قبره الشيخ العالم حبيب الله، والد الشيخ الكبير حسين أحمد المدني، رحمه الله، فأغمي عليه، ولم يستطع المكوث طويلاً، وعادإلى بلده.

* * *

فهـــرس

الموضوع | الصفحة

* * *